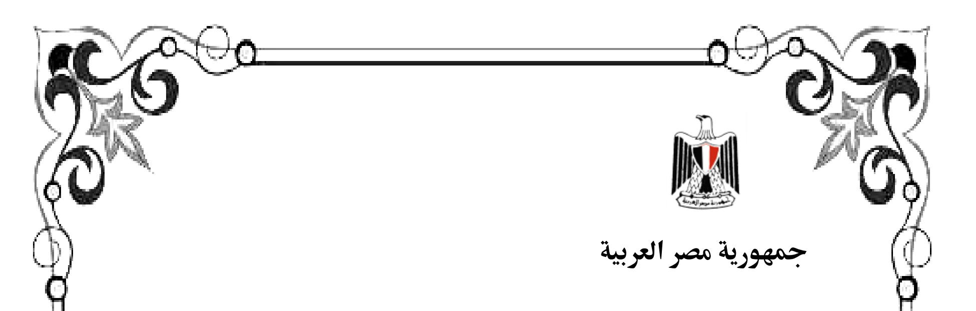


جمهورية مصر العربية

الدين والدولة

أ.د/ محمد مختار جمعة مبروك

وزير الأوقاف

عضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف

القاهرة

١٤٣٨هـ / ٢٠١٧م



بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

" وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ"

[هود: ٨٨]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين ، وبعد:

فإن العلاقة بين الدين والدولة ليست علاقة عداء ولن تكون ، إنَّ تديُّنًا رشيدًا صحيحًا واعيًا وسطيًّا يُسهم وبقوة في بناء واستقرار دولة عصرية ديمقراطية حديثة تقوم على أسس وطنية راسخة وكاملة ، وإن دولة رشيدة لا يمكن أن تصطدم بالفطرة الإنسانية التي تبحث عن الإيمان الرشيد الصحيح ، وإن من يتوهمون صراعًا لا يجب أن يكون بين الدين والدولة ويرونه صراعًا محتمًا إما أنهم لا يفهمون الأديان فهمًا صحيحًا أو لا يعون مفهوم الدولة وعيًا تامًا ، فالخلل لا علاقة له بالدين الصحيح ولا بالدولة الرشيدة ، إنما ينشأ الخلل من سوء الفهم لطبيعة الدين أو لطبيعة الدولة أو لطبيعتهما معا أو لطبيعة العلاقة بينهما .

وعلى شاكلة ما يصنع كتاب الأقصوصة والقصة القصيرة ومحاكاة لهم في اختيار اسم القصة أو الأقصوصة الأهم لديهم عنوانًا للمجموعة القصصية كلها اخترت موضوع: " الدين والدولة " ليكون عنوانًا لهذا الكتاب ، لأمرين : الأول أنه أحد أهم المقالات التي يتضمنها هذا الكتاب ، كونه يتناول قضية جدلية شائكة تحتاج إلى إيضاح لا يظلم الدين ولا يظلم الدولة ولا يظلمهما معًا ، الأمر الآخر : أن مقالات الكتاب

في جملتها تدور حول قضايا الفهم الصحيح للدين والبناء القويم للدولة .

وإني لأرجو أن يقدم هذا الكتاب تجارب فكرية دينية ووطنية جديرة بما يبذل في قراءتها أو إعادة قراءتها من وقت وفكر أو كدٍّ للذهن.

وقد آثرت السهولة واليسر ، وتجنب كل ألوان التكلف والتعقيد لفظيًّا كان أم معنويًّا ، فإن قد وفقت فيما قصدت فذلك فضل الله وكرمه ، وعونه وتوفيقه ولله الفضل والمنة في الأولى والآخرة ، وإن كانت الأخرى فحسبي أني حاولت واجتهدت .

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل

أ.د/ محمد مختار جمعة مبروك
وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
وعضو مجمع البحوث بالأزهر الشريف

الديــــن والدولــــة

الدولة الرشيدة هي صمام أمان للتدين الرشيد ، والعلاقة بين الدين والدولة ليست علاقة عداء ولن تكون ، إن تدينا رشيدًا صحيحًا واعيًا وسطيًّا يسهم وبقوة في بناء واستقرار دولة عصرية ديمقراطية حديثة تقوم على أسس وطنية راسخة وكاملة ، وإن دولة رشيدة لا يمكن أن تصطدم بالفطرة الإنسانية التي تبحث عن الإيمان الرشيد الصحيح ، على أننا ينبغي أن نفرّق وبوضوح شديد بين التدين والتطرف ، فالتدين الرشيد يدفع صاحبه إلى التسامح ، إلى الرحمة ، إلى الصدق ، إلى مكارم الأخلاق، إلى التعايش السلمي مع الذات والآخر ، وهو ما ندعمه جميعًا، أما التطرف والإرهاب الذي يدعو إلى الفساد والإفساد ، والتخريب والدمار ، والهدم واستباحة الدماء والأموال ، فهو الداء العضال الذي يجب أن نقاومه جميعًا وأن نقف له بالمرصاد ، وأن نعمل بكل ما أوتينا من قوة للقضاء عليه حتى نجتثه من جذوره.

وفي هذه المعادلة غير الصعبة يجب أن نفرق بين الدين الذي هو حق ، والفكر الإرهابي المنحرف الذي هو باطل ، موقنين أن الصراع بين الحق والباطل قائم ومستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، على أن النصر للحق طال الزمن أو قصر ، حيث يقول الحق سبحانه : "بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ" (الأنبياء : ١٨) .

إن مثل الحق والباطل كمثل الكلمة الطيبة التي هي حق ، والكلمة

الخبيثة التي هي باطل : "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ" (إبراهيم : ٢٤-٢٦) .

على أن النصر لا محالة للحق ولأهله ، حيث يقول الحق سبحانه : "وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ " (الصافات : ١٧١-١٧٣) ، ويقول سبحانه : " إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ" (محمد :٧) ، ويقول سبحانه : " وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ" (الروم :٤٧) .

إننا لأصحاب قضية عادلة ، قضية دين ، وقضية وطن ، فكل ما يدعو للبناء والتعمير ، والعمل والإنتاج ، وسعادة الناس وتحقيق أمنهم واستقرارهم ، لهو الدين الحق والإنسانية الحقيقية ، وكل ما يدعو للفساد والإفساد ، والتخريب والقتل ، يدعو إلى ما يخالف الأديان وسائر القيم النبيلة والفطرة الإنسانية القويمة.

الدين والدولة لا يتناقضان ، الدين والدولة يرسخان معا أسس المواطنة المتكافئة في الحقوق والواجبات ، وأن نعمل معًا لخير بلدنا وخير الناس أجمعين ، أن نحب الخير لغيرنا كما نحبه لأنفسنا ، الأديان رحمة ، الأديان سماحة ، الأديان إنسانية ، الأديان عطاء .

الدين والدولة يتطلبان منا جميعًا التكافل المجتمعي ، وأن لا يكون بيننا جائع ولا محروم ولا عارٍ ولا مشرد ولا محتاج.

الدين والدولة يدفعان إلى العمل والإنتاج ، والتميز والإتقان ، ويطاردان البطالة والكسل ، والإرهاب والإهمال ، والفساد والإفساد ، والتدمير والتخريب ، وإثارة القلاقل والفتن ، والعمالة والخيانة.

وختامًا نؤكد أن من يتوهمون صراعًا لا يجب أن يكون بين الدين والدولة ويرونه صراعًا محتًما إما أنهم لا يفهمون الأديان فهما صحيحًا أو لا يعون مفهوم الدولة وعيًا تامًا ، فالخلل لا علاقة له بالدين الصحيح ولا بالدولة الرشيدة ، إنما ينشأ الخلل من سوء الفهم لطبيعة الدين أو لطبيعة الدولة أو لطبيعتهما معًا .

غير أننا نؤكد على ضرورة احترام دستور الدولة وقوانينها ، وإعلاء دولة القانون ، وألا تنشأ في الدول سلطات موازية لسلطة الدولة أيا كان مصدر هذه السلطات ، فهو لواء واحد تنضوي تحته وفي ظله كل الألوية الأخرى ، أما أن تحمل كل مؤسسة أو جماعة أو جهة لواء موازيًا للواء الدولة فهذا خطر داهم لا يستقيم معه لا أمر الدين ولا أمر الدولة.

* * *

الحـــق والـــواجـــب

لا شك أن مبدأ الحق والواجب ، أو الحق مقابل الواجب ، أحد أهم المبادئ العادلة التي تسهم في إصلاح المجتمع ، فهناك الحقوق والواجبات المتبادلة بين الآباء والأبناء ، وبين الأزواج ، وبين الجيران ، وبين الأصدقاء ، وبين الشركاء ، وبين المواطن والدولة ، وبين العمال وأرباب العمل، وبين المعلم والمتعلم.

وقد أشارت بعض النصوص القرآنية والنبوية إلى هذه التبادلية ، وإلى ضرورة الوفاء بالحقوق والواجبات معًا ، حيث يقول الحق سبحانه في العلاقات بين الزوجين : " وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ " (البقرة : ٢٢٨) ، ويقول سبحانه في الحديث القدسي : " ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ "(رواه البخاري) ، وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رضي الله عنه) قَالَ: " كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلاَّ مُؤَخِّرَة الرَّحْلِ فَقَالَ: يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ. ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ، قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ. ثُمَّ سَارَ سَاعَةَ ، ثُمَّ قَالَ: (يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ) ، قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ. قَالَ: هَلْ تَدْرِى مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟ قَالَ : قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا). ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ، قَالَ: هَلْ تَدْرِى مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟. قَالَ: قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: " أَنْ لاَ

يُعَذِّبَهُمْ" (متفق عليه).

وعن سيدنا علي (رضي الله عنه) أنه قال في خطبة له خطبها بصفين: " أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ جَعَلَ اَللَّهُ سُبْحَانَهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا بِوِلاَيَةِ أَمْرِكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ اَلْحَقِّ مِثْلُ اَلَّذِي لِي عَلَيْكُمْ، وَاَلْحَقُّ أَوْسَعُ اَلْأَشْيَاءِ فِي اَلتَّوَاصُفِ وَأَضْيَقُهَا فِي اَلتَّنَاصُفِ، لاَ يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلاَّ جَرَى عَلَيْهِ ، وَلاَ يَجْرِي عَلَيْهِ إِلاَّ جَرَى لَهُ، وَلَوْ كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلاَ يَجْرِيَ عَلَيْهِ لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصاً لِلَّهِ سُبْحَانَهُ ".

ورأي بعض الناس رجلا مسنًّا يزرع نخلة لا ينتظر أن يجني شيئًا من ثمارها في حياته ، فقيل له : وهل تنتظر أن تدرك جني شيء من ثمارها؟ فقال الرجل : زرع من قبلنا فحصدنا ، ونحن نزرع ليحصد من بعدنا ، " افعل ما شئت كما تدين تدان".

والقاعدة : أن من أخذ الأجر حاسبه الله على العمل ، وأن العقد شريعة المتعاقدين ، وقد أمرنا رب العزة بالوفاء بالعقود ، فقال سبحانه : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ " (المائدة :١) ، وحذرنا سبحانه من خيانة الأمانات في العمل أو في غيره ، فقال سبحانه : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ " (الأنفال : ٢٧) ، وحثنا نبينا (صلى الله عليه وسلم) على إتقان العمل ، فقال : " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلا أَنْ يُتْقِنَهُ" (مسند أبي يعلى) .

ودينا قائم على الإتقان ، والإحسان ، ومراقبة الله (عز وجل) في السر والعلن قبل مراقبة الخلق ، لأن الخلق إن غفلوا عن المراقبة أو المتابعة ، فهناك من لا يغفل ولا تأخذه سنة ولا نوم ، حيث يقول سبحانه : " اللّهُ لاَ

إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَـوْمٌ " (البقرة : ٢٥٥) ، ويقـول (عز وجل): " مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُـوَ رَابِعُهُـمْ وَلا خَمْسَـةٍ إِلا هُـوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ " (المجادلة : ٧) ، ويقـول سبحانه : " وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ " (الأنعام : ٥٩) ، ويقول على لسان لقمان (عليه السلام) مخاطبًا ولده " يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ " (لقمان : ١٦) .

فما أحوجنا إلى ترسيخ مبدأ الحق مقابل الواجب في كل مجالات حياتنا وعلاقاتنا ، وبخاصة في مجال العمل ، إذ لا يمكن للحياة ولا العلاقات أن تستقيم من جانب واحد ، فيكون أحد الشقين معتدلا والآخر مائلا ، إنما تستقيم الأمور باستواء الجانبين معا ، والوفاء بالحقوق والواجبات معا ، نؤدي الذي علينا حتى يبارك الله (عز وجل) في الذي لنا .

* * *

التدين الشكلي والتدين السياسي

لا شك أن ظاهرة التدين الشكلي وظاهرة التدين السياسي تعدان من أخطر التحديات التي تواجه المجتمعات العربية والإسلامية ، سواء من هؤلاء الذين يركزون على الشكل والمظهر ولو كان على حساب اللباب والجوهر ، وإعطاء المظهر الشكلي الأولوية المطلقة ، حتى لو لم يكن صاحب هذا المظهر على المستوى الإنساني والأخلاقي الذي يجعل منه القدوة والمثل ، ذلك أن صاحب المظهر الشكلي الذي لا يكون سلوكه متسقًا مع تعاليم الإسلام يُعد أحد أهم معالم الهدم والتنفير ، فإذا كان المظهر مظهر المتدينين مع ما يصاحبه من سوء المعاملات ، أو الكذب ، أو الغدر ، أو الخيانة ، أو أكل أموال الناس بالباطل ، فإن الأمر هنا جد خطير ، بل إن صاحبه يسلك في عداد المنافقين ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ ، إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ" ، وكذلك من يحصر التدين في باب العبادات والاجتهاد فيها مع سوء الفهم للدين والإسراف في التكفير وحمل السلاح والخروج على الناس به كما حدث من الخوارج الذين كانوا من أكثر الناس صلاة وصيامًا وقيامًا غير أنهم لم يأخذوا أنفسهم بالعلم الشرعي الكافي الذي يحجزهم عن الولوغ في الدماء فخرجوا على الناس بسيوفهم ، ولو طلبوا العلم أولاً كما قال الإمام الشافعي (رحمه الله) لحجزهم عن ذلك ، فالإسلام دين رحمة قبل كل شيء وكل ما يبعدك عن الرحمة يبعدك عن الإسلام ، والعبرة بالسلوك السوي لا بمجرد القول، وقد قالوا : حال رجل في ألف خير من كلام ألف لرجل.

على أن العبادات كلها لا تؤتى ثمرتها إلا إذا هذَّبت سلوك وأخلاق صاحبها ، فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له ، يقول الحق سبحانه وتعالى: " إِنّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ " ، ومن لم ينهه صيامه عن قول الزور فلا صيام له ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ " (صحيح البخاري)، ولا يقبل الله – عز وجل – في الزكاة والصدقات إلا المال الطيب الطاهر ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) :" إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا "(رواه مسلم)، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " لاَ تُقْبَلُ صَلاَةٌ بِغَيْرِ طُهُورٍ وَلاَ صَدَقَةٌ مِنْ غُلُولٍ" (صحيح مسلم) ، وقبول الحج مرهون بالنفقة الحلال وحسن السلوك ، " مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ "، وذكر (صلى الله عليه وسلم) : " الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ " .

وأخطر من هذا التدين الشكلي التدين السياسي ونعني به هذا الصنف الذي يتخذ الدين وسيلة ومطية للوصول إلى السلطة من خلال استغلال العواطف الدينية وحب الناس وبخاصة العامة لدينهم ، وإيهامهم بأن هدفه من الوصول إلى السلطة إنما فقط هو خدمة دين الله (عز وجل) والعمل على نصرته والتمكين له ، ومع أننا لا نحكم على النوايا ولا نتدخل في أمر النيات فهي ما بين العبد وخالقه ، وكل ونيته ، فإن التجربة التي عشناها والواقع الذي جربناه مع جماعة الإخوان الإرهابية

ومن دار في فلكها أو تحالف معها من جماعات الإسلام السياسي ، أكد لنا أمرين ، الأمر الأول : أن القضية عندهم لم تكن قضية دين على الإطلاق إنما كانت قضية صراع على السلطة بشَرَهٍ ونَهَمٍ لم نعرف لهما مثيلا وإقصاء للآخرين في عنجهية وصلف وغرور وتكبر واستعلاء ، بما نفر الناس منهم ومن سلوكهم الذي صار عبئا كبيرًا على الدين ، وأصبحنا في حاجة إلى جهود كبيرة لمحو هذه الصورة السلبية التي ارتسمت في أذهان كثير من الناس رابطة بين سلوك هؤلاء الأدعياء وبين الدين ، الأمر الآخر : أنهم أساءوا لدينهم وشوهوا الوجه النقي لحضارته الراقية السمحة ، وأثبتوا أنهم لا أهل دين ولا أهل كفاءة ، وإلا فهل من الدين أن يخون الإنسان وطنه وأن يكشف أسراره ويبيع وثائقه ؟، وهل من الدين التحريض على العنف والقتل والفساد والإفساد وتشكيل ما يسمى باللجان النوعية التي تعيث في الأرض فسادًا في عمالة وخيانة غير مسبوقة ، خيانة للوطن ، وعمالة لأعدائه؟

وقد أكدت ومازلت أؤكد أن هذه الجماعة الإرهابية التي وظفت الدين لخداع الناس وتحقيق مآربها السلطوية هي على استعداد للتحالف حتى مع الشيطان لتحقيق أهدافها ومطامعها السلطوية على حساب دينها أو حساب وطنها أو حساب أمتها .

* * *

الخلاف الفقهي والخلاف السياسي

تحدثنا عن العلاقة بين الدين والسياسة ، وأكدنا مرارًا على أهمية ترسيخ مفهوم الدولة الوطنية والبناء الوطني الصلب الذي يسع الجميع على أساس الحقوق والواجبات الوطنية المتبادلة ، وعلى عدم المتاجرة بالدين أو استغلاله في المصالح السياسية أو الحزبية.

والطبعيّ والمفترض والمنتظر أن يعمل العلماء على ما يبني لا ما يهدم ، وما يجمع ولا يفرق ، وأن يفرقوا بين ما هو ديني شرعي قطعي الثبوت والدلالة ، وبين ما هو ظني الدلالة يحتمل الرأي والرأي الآخر ، ويُعد الخلاف فيه سعة للأمة ، وسعة عليها ، وكما قال سيدنا عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه): ما يسرني أن أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) لم يختلفوا ، أي لم يختلفوا في الرأي وفهم النص ، لأنهم لو لم يختلفوا لكان ذلك مشقة على الناس ، إذ إن أكثر ما يتصل بالمعاملات وتنظيم شئون الناس ونظام حياتهم مما فيه متسع كبير ، وقد تختلف الفتوى فيه باختلاف الزمان أو المكان أو الأحوال ، فما كان راجحًا في عصر وفق ظروف هذا العصر قد يصبح مرجوحًا إذا تغير الزمان، وما تكون الفتوى فيه راجحة في مكان ما نظرًا لطبيعة هذا المكان ، فإنها قد تصبح مرجوحة إذا تغير المكان أو الحال واستدعى الأمر اجتهادًا جديدًا يجعل المرجوح راجحًا ، والراجح مرجوحًا.

والمنتظر من العلماء والفقهاء والمفكرين العقلاء في كل زمان ومكان أن يكونوا رجال فكر وعقل ، ودعاة أمن وسلام بحق وصدق وإخلاص ، مستحضرين منهج الإسلام في ترسيخ أسس التعايش السلمي

بين البشر جميعًا ، مؤثرين المصالح العليا للإنسانية على مصالحهم الشخصية الضيقة ، ولنا في منهج النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي رسخه لأسس التعايش بين أهل المدينة جميعًا على اختلاف أديانهم وأعراقهم وقبائلهم أفضل الأسوة ، وذلك حين أعلن (صلى الله عليه وسلم) أن المسلمين مع يهود المدينة الذين عددهم النبي (صلى الله عليه وسلم) قبيلة قبيلة ، أمة واحدة ، وجاء الإنصاف الكامل حين قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : (لليهود دينهم وللمسلمين دينهم) ، كما آخى (صلى الله عليه وسلم) بين أصحابه على اختلاف أعراقهم وقبائلهم، مع ما كان بين الأوس والخزرج من إحن وعداوات تاريخية ، وهو ما ذكره الحق سبحانه في قوله تعالى:" وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ".

فالأصل أن يقود العلماء التوافق لا أن يقودوا الخلاف ، ولا أن يُزكوا جذوة الشقاق ، ولكن شطط بعض العلماء والمفكرين في الذهاب إلى أقصى الطرف ، وبحث بعضهم عن الشاذ من الآراء ،وربما حب الظهور أحيانًا ، ومجاملته السلطات أحيانًا أخرى ، ومسابقة بعض المحسوبين على العلماء في إذكاء التطلعات التوسعية لبعض الدول وإلباسها ثوب الواجب الديني ، إنما يسهم في بث الفرقة ، وربما تأجيج الفتن على حساب جمع الشمل الذي لا غنى عنه للأمة ، وللمنطقة ، ولتحقيق أمن وسلام العالم ، إن كنا جادين في البحث عن هذا السلام والعمل على

تحقيقه ، وتخليص الديني من السياسي ، والمذهبي من التوظيف السياسي للدين أو للمذهبية.

فبدل أن يكون صوت العلماء هو صوت الحكمة والعقل ووحدة الصف ونبذ الشقاق دائما ، صار صوت بعض المذهبيين المتعصبين منهم غير المدركين لفقه الواقع صوت فرقة وشقاق في بعض الأمور ، وربما كانت الرغبة في إرضاء بعض الحكام ، أو الأهل والعشير ، أو االنصير والأتباع والمريدين ، وراء التشبث ببعض الآراء أو الفتاوى ، دون النظر في العواقب الوخيمة التي يمكن أن تترتب على تبني الآراء الشاذة أو العصبية العمياء دون إعمال حقيقي للفكر والعقل والمنطق.

علينا جميعًا أن ندرك أن القضاء على الآخر والمختلف ومحوه من الذاكرة الإنسانية يُعد أمرًا مستحيلا ومخالفا لسنن الله الكونية ، الذي خلق الناس مختلفين ، يقول سبحانه : " وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ " ، كما أن محاولة محو الآخر أو تقزيمه ستقابل بمحاولة مماثلة ، فيدخل العالم كله في صراعات دينية ومذهبية لا تبقي ولا تذر ، ولا تخلف سوى الخراب والدمار والهدم والإفساد.

إن الطبيعي أن يكون العلماء أعلام استنارة ، وأعلام سلام ، وأعلام حوار ، وأعلام تقارب ، وأعلام وفاق لا عناوين شقاق ، يجمعون ولا يفرقون ، يبنون ولا يهدمون ، وهو ما يجب أن نسعى جميعًا إليه ، ونعمل على تحقيقه.

* * *

ضرورة الاجتهاد الجماعي

لقد عانت مجتمعاتنا من الفتاوى الشاذة والآراء الشاذة ، ولهث بعض المحسوبين على العلماء من غير المؤهلين وغير المتخصصين ومن بعض ضعاف النفوس المتطلعين للشهرة أو الجاه أو حب الظهور ، خلف كل شاذ وغريب من الآراء ، ليجذبوا بذلك الأنظار إليهم ، أو ليخدموا به مصالح جماعتهم وتنظيماتهم.

ونظرًا لكثرة القضايا والمستجدات العصرية وتشعبها وتداخلها وحساسية كثير منها ، وتصادم بعضها مع آراء لبعض العلماء والفقهاء المتقدمين الذين أفتوا بما يناسب عصرهم وزمانهم ومكانهم ، مع جهل غير المتخصصين وغير المؤهلين وأنصاف العلماء بتحقيق المناط وتنقيحه ، وإسقاط بعض الأحكام على غير مثيلها ، نتيجة الجهل بالواقع والجهل بشروط القياس الصحيح ، فإن الأمر قد بات أكثر إلحاحًا وضرورة لهذا الاجتهاد الجماعي.

ومن هنا كانت دعوة فضيلة الإمام الأكبر أ.د/ أحمد الطيب شيخ الأزهر في كلمته التي ألقاها في افتتاح مؤتمر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمدينة الأقصر تحت عنوان : "رؤية الأئمة والعلماء لتجديد الخطاب الديني، وتفكيك الفكر المتطرف"، إلى تبني الاجتهاد الجماعي الذي يدعى إليه كبار العلماء ، من مختلف دول العالم ممن يحملون هموم الأمة ومشكلاتها ليواجهوا بشجاعة القضايا العالقة مثل قضايا الإرهاب وتحديد مفهوم دار الإسلام ، والالتحاق بجماعات العنف

المسلح ، والخروج على المجتمع وكراهيته ، واستباحة دم المواطنين بالقتل أو التفجير ، أو ما كان متعلقًا بحقوق الإنسان والحرية ، أم كان متعلقًا بأمور الاجتماع وأولها قضايا المرأة ، وتحديد أوائل الشهور العربية بالحساب الفلكي ، ومسائل الحج ، وبخاصة الإحرام من جده للقادم جوًا أو بحرًا،ورمي الجمرات في سائر الأوقات ، وغير ذلك مما يفرضه واجب الوطن وواجب الوقت وحاجة الناس ، مع استنهاض الأمة لاستصدار فتاوى تُوجب العمل وتحرّم التقاعس والكسل،شريطة ألا يُفتى في هذه القضايا الدقيقة بفتاوى مجملة ونصوص عامة لا تنزل إلى الأرض ولا تحسم القضية ولا تغير الواقع.

ولا شك أن هذا الاجتهاد الجماعي سيسهم بشكل كبير وواضح وبناء في القضاء على الآراء الشاذة ، وعلى إزالة أسباب التطرف التي لخص مؤتمر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية الأخير أهمها فيما يأتي:

١- الانغلاق ، والجمود ، والتقليد الأعمى ، وسوء الفهم ، والوقوف عند حرفية النصّ ، والابتعاد عن فقه المقاصد والمآلات ، وعدم فهم القواعد الكلية للتشريع ، وإتاحة الفرصة لتصدر غير المؤهلين وغير المتخصصين لبعض جوانب المشهد الدعوي.

٢- متاجرة بعض الجماعات والتنظيمات بالدين ، واتخاذه مطيّة لتحقيق مصالح سياسية وحزبية ، مع إيثار مصالح الجماعات والتنظيمات على المصالح العليا للدين والوطن ، وغلبة التدين الشكلي والتدين السياسي على التدين الخالص لله (عز وجل) .

٣- نجاح بعض القوى الاستعمارية في استقطاب عملاء لها في كثير من الدول العربية والإسلامية ، سواء على وجه المصالح المتبادلة ، والوعود الوهمية لبعض الجماعات ، أم عن طريق شراء الذمم والولاءات .

٤- على أن هذا الاجتهاد الجماعي يمكن أن يؤدي إلى تحقيق جانب كبير من التقارب بين العلماء ، ويزيل كثيرًا من أسباب الفُرْقَة والخلاف ، مما يسهم - وبلا شك - في وحدة صف الأمة ، ولا سيما في مواجهة الأفكار الشاذة والمنحرفة والضالة والمتطرفة .

* * *

التعددية السياسية والسلطات الموازية

يجمع هذا العنوان وعن قصد بين أمرين يكادان يكونان متناقضين من حيث القبول والرفض ، أحدهما لا غنى عنه لإثراء العملية الديمقراطية ، والآخر يشكل خطرًا بالغًا على كيان الدول ويهدد بانهيارها أو ضعفها أو تمزقها ، أما التعددية السياسية فهي مطلب ديمقراطي عادل ، فعالم القطب الواحد ، ودول الحزب الواحد ، غالبًا ما يؤول بها الحال إلى لون من الدكتاتورية أو الضعف والاسترخاء لعدم وجود منافسة حقيقة تدفع المنافس إلى استنفاد أقصى ما في طاقته في الوفاء بحق ما يسند إليه من مهام وتكاليف.

أما وجود سلطات موازية في أي دولة ، أو وجود جماعات ضغط ذات مصالح خاصة بها ، أيا كان شكل هذه السلطات والجماعات ، فإن ذلك يُشكل خطرًا على بنيان الدول وتماسك كيانها ، وبخاصة تلك السلطات التي تتستر بعباءة الدين وتحاول أن تستمد قوتها ونفوذها من خلال المتاجرة به.

والمقياس الوحيد الذي تقيس به أي دولة أو مجتمع مدى وجود سلطات موازية أو عدم وجودها ، هو مدى قدرتها على إنفاذ القانون على الجميع وبلا أي حسابات أو استثناءات وبلا تردَّدٍ أو توجُّسٍ ، وألا يُسمح لأي جماعة أو شخص بالتمترس بأتباعه للالتفاف على القانون أو تعطيله بالقوة على نحو ما كان يحدث عام الأهل والعشير الأسود ، وأن يسلك الجميع الطرق القانونية في التعبير عن مطالبهم ، وأن يلتزموا بما تقتضيه القوانين واللوائح المنظمة في كل مجال من المجالات ،

مؤكدين أننا لا نجيز الاحتيال على القانون ، وأن مبدأ الغاية تبرر الوسيلة الذي تنطلق منه جماعات الإسلام السياسي قد انحرف بالمجتمع عن جادة الصواب وهوى به إلى مزالق خطيرة كادت تعصف به لولا فضل الله ولطفه بنا ، ويقظة وضمير السيد الرئيس / عبد الفتاح السيسي ومن خلفه قواتنا المسلحة الباسلة ، وسائر الشرفاء الوطنيين المخلصين ، مما يجعل شبح العودة إلى الفكر الإخواني الإرهابي في محاولات إنشاء كيانات موازية لكيانات الدولة أمرًا مزعجًا يجب التصدي له بكل قوة وحسم حفاظًا على هيبة الدولة الوطنية.

وإذا كنا نؤمن بأنه لا إكراه في الدين ، وأن دور العلماء هو البلاغ المبين ، وأنهم دعاة وهداة وليسوا حكامًا أو قضاة ، فإن هذا الأمر يتطلب وضوحًا في العلاقة بين الدعوة والسلطة ، على أن السلطات الموازية التي تحاول بعض الكيانات خلقها قد تكون دينية أو فكرية أو ثقافية ، وقد تكون اقتصادية ، وقد تكون اجتماعية من خلال أنشطة بعض الجمعيات ، أو تحت أي مسمى آخر.

والخلاصة أن أي كيان يشعر بأنه فوق القانون وفوق المحاسبة ويصل الأمر إلى التحسس والتوجس من محاسبته يُعد سلطة موازية تشكل خطرًا أو ضغطًا على دولة القانون وعلى إنفاذه ، وأن نطبق العدالة الشاملة على الجميع وبلا أي استثناءات هو الحل الأمثل لإنقاذ دولة القانون ، وهذا سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : " إنما أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَإِنِّى وَالَّذِى نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ

فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا ".

وهذا سيدنا أبو بكر (رضي الله عنه) يقول عند توليه الخلافة : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ ، فَإِنْ ضَعُفْتُ فَقَوِّمُونِي، وَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي، الصِّدْقُ أَمَانَةٌ ، وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ، الضَّعِيفُ فِيكُمُ الْقَوِيُّ عِنْدِي حَتَّى أُزِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَالْقَوِيُّ فِيكُمُ الضَّعِيفُ عِنْدِي حَتَّى آخُذَ مِنْهُ الْحَقَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .. أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ".

وهذا سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يكتب إلى أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) رسالته التاريخية في شئون القضاء ، فيقول : " أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ ، فَافْهَمْ إِذَا أُدْلِيَ إِلَيْكَ فَإِنَّهُ لاَ يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍّ لاَ نَفَادَ لَهُ ، وَآسِ بَيْنَ النَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَعَدْلِكَ حَتَّى لاَ يَيْأَسَ الضَّعِيفُ مِنْ عَدْلِكَ، وَلاَ يَطْمَعَ الشَّرِيفُ فِي حَيْفِكَ" .

فقد طلب سيدنا عمر بن الخطاب من واليه على الكوفة أبي موسى الأشعري أن يسوي بين الناس في مجلس القضاء مساواة كاملة ، بقوله : " آس بين الناس في مجلسك ووجهك" أي حتى في طريقة إجلاسهم والنظر إليهم ، فلا تستقبل واحدًا منهم بإكرام والآخر بغير ذلك ، أو تنادي أحدًا باسمه مجردًا والآخر بلقبه أو كنيته ، وذلك حتى لا يطمع القوي في المحاباة أو المجاملة أو ييأس الضعيف من الحق والعدل.

فبالعدالة الشاملة وغير الانتقائية وبإنفاذ القانون على الجميع وإعلاء دولته، واحترام سيادة القضاء ، يكون الأمن النفسي والاستقرار

المجتمعي ، وقد قال أهل العلم : إن الله (عز وجل) يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً وَلَا يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُؤْمِنَةً.

وأخطر ما يتعلق بالسلطة الموازية هو تلك الجماعات أو الفصائل المذهبية أو العرقية أو الطائفية التي تحاول أن تستمد قوتها وعوامل نفوذها من دول أخرى ، تجعل ولاءها الأول والأخير لها ، تعمل لحسابها من جهة وتستقوي بها من جهة أخرى.



مشروعية الدولة الوطنية

في السياق والمناخ الفكري الصحي لا يحتاج الثابت الراسخ إلى دليل ، لكن اختطاف الجماعات المتطرفة للخطاب الديني واحتكارها له ولتفسيراته جعل ما هو في حكم المسلمات محتاجًا إلى التدليل والتأصيل ، وكأنه لم يكن أصلا ثابتًا ، فمشروعية الدولة الوطنية أمر غير قابل للجدل أو التشكيك ، بل هو أصل راسخ لا غنى عنه في واقعنا المعاصر ، حتى أكد بعض العلماء والمفكرين أن الدفاع عن الأوطان مقدم على الدفاع عن الأديان ، لأن الدين لا بد له من وطن يحمله ويحميه ، وإلا لما قرر الفقهاء أن العدو إذا دخل بلدًا من بلاد المسلمين صار الجهاد ودفع العدو فرض عين على أهل هذا البلد رجالهم ونسائهم، كبيرهم وصغيرهم ، قويهم وضعيفهم ، مسلحهم وأعزلهم ، كل وفق استطاعته ومكنته ، حتى لو فنوا جميعًا ، ولو لم يكن الدفاع عن الديار مقصدًا من أهم مقاصد الشرع لكان لهم أن يتركوا الأوطان وأن ينجوا بأنفسهم وبدينهم.

وتعني الدولة الوطنية احترام عقد المواطنة بين الشخص والدولة ، وتعني الالتزام الكامل بالحقوق والواجبات المتكافئة بين أبناء الوطن جميعا دون أي تفرقة على أساس الدين أو اللون أو العرق أو الجنس أو اللغة ، غير أن تلك الجماعات الضالة المارقة المتطرفة المتاجرة بالدين لا تؤمن بوطن ولا بدولة وطنية ، فأكثر تلك الجماعات إما أنها لا تؤمن بالدولة الوطنية أصلا من الأساس ، أو أنَّ ولاءها التنظيمي الأيديولوجي فوق كل الولاءات الأخرى وطنية وغير وطنية ، فالفضاء التنظيمي لدى

هذه الجماعات أرحب وأوسع بكثير من الدولة الوطنية والفضاء الوطني.

وتسوّق سائر الجماعات المتطرفة أنها حامية حمى الدين ، وأنها إنما تسعى لتطبيق حكم الله (عز وجل) وإقامة شرعه ، ونتساءل : أين ما تقوم به هذه الجماعات من قتل ونسف وتفجير وتدمير وسفك للدماء وانتهاك للأعراض وسبي للحرائر ونهب للأموال وترويع للآمنين من شرع الله وحكمه.

إن ما تقوم به هذه الجماعات المتطرفة هو عين الجناية على الإسلام ، ذلك أن ما أصاب الإسلام من تشويه لصورته على أيدي هؤلاء المجرمين بسبب حماقاتهم لم يصبه عبر تاريخه على أيدي أعدائه من التتار بما ارتكبوه من مجازر في الماضي وما يصيبه على أيدي داعش ، والقاعدة ، والنصرة ، وبوكو حرام ، وأضرابهم في الحاضر.

ونستطيع أن نؤكد وباطمئنان على أمور ، أهمها :

الأول: أن الإسلام لم يضع قالبا جامدًا لنظام الحكم لا يمكن الخروج عنه ، إنما وضع أسسا ومعايير متى تحققت كان الحكم رشيدًا يقره الإسلام ، وفي مقدمتها مدى تحقيق الحكم للعدل والمساواة وسعيه لتحقيق مصالح البلاد والعباد، ولا إشكال بعد ذلك في الأسماء أو المسميات ، لأن العبرة بالمعاني والمضامين لا بالأسماء ولا بالمسميات .

الثاني : أنه حيث تكون المصلحة ، ويكون البناء والتعمير ، فثم شرع الله وصحيح الإسلام ، وحيث يكون الهدم والتخريب والدمار فثمة عمل الشيطان وجماعات الفتنة والدمار والخراب .

الثالث : أن العمل على تقوية شوكة الدولة الوطنية مطلب شرعي ووطني ، وأن كل من يعمل على تقويض بنيان الدولة أو تعطيل مسيرتها، أو تدمير بناها التحتية ، أو ترويع الآمنين بها ، إنما هو مجرم في حق دينه ووطنه معًا .

الرابع : أننا في حاجة ملحة إلى إعادة قراءة تراثنا الفكري قراءة دقيقة واعية تفرق بين الثابت والمتغير ، بين ما ناسب عصره وزمانه ومكانه من اجتهادات الفقهاء وما يتطلبه عصرنا ومستجداته من قراءة جديدة للنصوص يقوم بها أهل العلم والاختصاص لحل إشكاليات الحاضر وبخاصة فيما يتصل بأحكام المواطنة إلى جانب تأصيل فقه العيش الإنساني المشترك ، وبيان أن أمن الأوطان والمواطنين لا يتجزأ وإنه لا يتحمل التجزئة أو التصنيف ، وقد ذكر الإمام ابن حزم (رحمه الله) أن من كان بيننا من أهل الذمة وجاء من يقصدونهم بسوء وجب علينا أن نخرج لحمايتهم بالسلاح وأن نموت دون ذلك ، لا أن نستحل دماءهم أو أموالهم أو أعراضهم .

* * *

المشتركات الإنسانية في الشرائع السماوية

إن جانبًا كبيرًا من العنف الذي شهدناه على الساحة المصرية ونشاهده على الساحة الدولية إنما يرجع إلى فقدان أو ضعف الحس الإنساني ، واختلال منظومة القيم ، مما يجعلنا في حاجة ملحة إلى التأكيد على الاهتمام بمنظومة القيم الإنسانية ، والتنوع الثقافي والحضاري ، والانطلاق من خلال المشترك الإنساني بين البشر جميعًا.

فقد كرم الحق سبحانه الإنسان على إطلاق إنسانيته دون تفرقة بين بني البشر ، فقال (عز وجل) : " ولقد كرمنا بني آدم " ، فالإنسان بنيان الرب ، من هدمه هدم بنيانه عز وجل.

كما أجمعت الشرائع السماوية على جملة كبيرة من القيم والمبادئ الإنسانية ، من أهمها : حفظ النفس البشرية ، قال تعالى: " أَنّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنّمَا قَتَلَ النّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنّمَا أَحْيَا النّاسَ جَمِيعاً" (المائدة : ٣٢) .

ولهذا قدّر نبينا (صلى الله عليه وسلم) للنفس الإنسانية حرمتها ، فلما مرت عليه جنازة يهودي وقف لها ، فقيل له : إنها جنازة يهودي ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : أليست نفسًا ؟.!

ومن القيم التي أجمعت عليها الشرائع السماوية كلها : العدل ، والتسامح ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، والصدق في الأقوال والأفعال، وبر الوالدين ، وحرمة مال اليتيم ، ومراعاة حق الجوار ، والكلمة الطيبة ، وذلك لأن مصدر التشريع السماوي واحد ، ولهذا قال

نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " الأنبياء إخوة لعلّات أمهاتهم شتى ودينهم واحد " (مسند الإمام أحمد) .

فقد تختلف الشرائع في العبادات وطريقة أدائها وفق طبيعة الزمان والمكان ، لكن الأخلاق والقيم الإنسانية التي تكون أساساً للتعايش لم تختلف في أي شريعة من الشرائع، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت " (أخرجه البخاري) .

وأروني أي شريعة من الشرائع أباحت قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، أو أباحت عقوق الوالدين ، أو أكل السحت ، أو أكل مال اليتيم، أو أكل حق العامل أو الأجير.

وأروني أي شريعة أباحت الكذب ، أو الغدر ، أو الخيانة ، أو خُلف العهد ، أو مقابلة الحسنة بالسيئة.

بل على العكس فإن جميع الشرائع السماوية قد اتفقت وأجمعت على هذه القيم الإنسانية السامية ، من خرج عليها فإنه لم يخرج على مقتضى الأديان فحسب ، وإنما يخرج على مقتضى الإنسانية وينسلخ من آدميته ومن الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها .

ولهذا قال ابن عباس (رضي الله عنهما) عن قوله تعالى : " قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُم وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا

وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " (سورة الأنعام : ١٥١-١٥٣) .

هذه آيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب ، وهى محرمات على بني آدم جميعاً ، وهن أم الكتاب أي : أصله وأساسه ، من عمل بهن دخل الجنة ، ومن تركهن دخل النار .

ودیننا علمنا أن نقول الكلمة الطيبة للناس جميعاً بلا تفرقة ، فقال سبحانه : " وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا " (البقرة : ٨٣) ، بل نحن مطالبون أن نقول التي هي أحسن ، يقول سبحانه وتعالى : " وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ " (الإسراء : ٥٣) .

ويقولون: البر شيء هين وجه طلق وقول لين ، ويقول الحق سبحانه: " وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ" (فصلت : ٣٥) .

وفى تعاليم سيدنا عيسى (عليه السلام) : " من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر " .

في دعوة عظيمة للتسامح في كل الشرائع السماوية لكي تعيش البشرية فى سلام وصفاء ، لا نزاع وشقاق أو عنف وإرهاب .

*   *   *

قيام الدول وسقوطها

لا شيء أخطر في تاريخ البشرية من المراحل الانتقالية في تاريخ الدول ، حتى كتب العديد من الباحثين الكثير من الرسائل حول سقوط دول وقيام أخرى ، تنظيرًا وتطبيقًا ، ولم يأت الخطر الحقيقي علي أي دولة من خارجها، مثلما كانت عوامل سقوطها نابعة من داخلها سواء بخيانة بعض أبنائها وعمالتهم واستخدامهم لضرب دولهم ، أم بسقطات أبنائها وخروجهم عن طريق الجادة إلى طريق الانحراف أو البغي والطغيان والاستكبار ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: " وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً " ، ويقول سبحانه وتعالى : " فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ "، ويقول سبحانه في شأن قوم سيدنا صالح (عليه السلام): " وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ " ، ويقول سبحانه في قوم سيدنا لوط عليه السلام : " وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ " .

فالحكم الرشيد هو الذي يقوم على العدل ، ذلك أن الله (عز وجل)

ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنة ، ويقوم على القيم والأخلاق ، ذلك أن الأمم والحضارات التي لا تقوم على القيم والأخلاق إنما تحمل عوامل سقوطها وانهيارها في أصل بنيانها ، "سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا".

وقد حاول بعض من كتبوا في شأن الدول أن يبينوا عوامل استقرار الدول وعوامل انهيارها و سقوطها ، فذكر بعضهم أن من أهم الأمور التي تؤدي إلى انهيار الدول:

الأول: انتشار الفساد بكل أشكاله من المجاملة والرشوة والمحسوبية وتقديم الولاء على الكفاءة ، إذ لا يسخط الناس في حياتهم من شيء قدر سخطهم من الفساد وإحساسهم بالغبن ، لذا يجب على أي حكم رشيد أن يجعل محاربة الفساد بكل صوره وأشكاله أولوية وهو ما أرى أننا نسير فيه بخطى ثابتة وربما غير مسبوقة ، مما جعل مصر تحسن موقعها كثيرا في مجال محاربة الفساد وتحقيق الشفافية .

الأمر الثاني : شيوع الظلم سواء على مستوى الأفراد بغياب الأمن أو غياب القضاء العادل أو غياب العدالة في الحصول على الفرص المتكافئة أيًّا كان نوعها ، أم على المستوى الطبقي الذي يقوم على استبعاد الفقراء والكادحين وتهميشهم مع ازدرائهم والاستخفاف بهم.

وهو يتطلب تضافر كافة المؤسسات الرسمية والاجتماعية والأهلية لحماية الطبقات الأكثر فقرًا واحتياجًا من خلال الرعاية الاجتماعية المتكاملة من منظور ديني ووطني فكلاهما يدعوان إلى التكافل والتراحم ، فنحن في سفينة واحدة ، لا منجاة فيها لأحد بمفرده ، حيث

يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنْ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا : لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا".

الأمر الثالث: غياب الأمن وضعف سلطة الدولة وقيام العصابات أو الجماعات أو الميليشيات بفرض سطوتها على المجتمع أو على بعض المواطنين ، مما يفقد المظلومين المقهورين الولاء للدولة ، لذا فإن دعم المؤسسات العسكرية والأمنية لحفظ الوطن من الأخطار المحدقة به في الداخل والخارج يُعد مطلبًا شرعيًّا ووطنيًّا، على أن يكون أمن المواطن والحفاظ على كرامته أولوية لأي نظام يبحث عن الاستقرار وتحقيق الولاء والانتماء الوطني.

الأمر الرابع : تدهور القيم ، فإن الحضارات قد تضعف أو تذبل أو تمرض، وأطباؤها هم العلماء والمفكرون والفلاسفة وحماة القيم والباحثون عنها ، مع التأكيد على أهمية إعداد وانتقاء واختيار من يشكلون فكر وثقافة المجتمع فقد ذكر بعضهم أن الأنبياء حكام على الظاهر والباطن ، والحكام حكام على الظاهر ، والعلماء حكام على باطن الخاصة ، والوعاظ حكام على باطن الخاصة ، وإذا كانت الحروب تنشأ في الباطن قبل الظاهر وتنمو في العقل قبل أن تنمو على الأرض ، فإن التعامل الأمني يتعامل مع العرض والظاهر وهو أمر في غاية الأهمية، لكن يبقى التعامل مع أصل الداء والمرض في الباطن ، وهو

دور العلماء والمفكرين والمثقفين والمربين والتربويين والوعاظ ، ومن ثمة فإنه لابد من حسن انتقائهم وحسن إعدادهم وتأهيلهم ورعايتهم الرعاية المناسبة للمهام الثقيلة الملقاة على عاتقهم ، وهو ما نسعى إليه ونعمل معا على تحقيقه بإذن الله تعالى.

الأمر الخامس : تدهور الأحوال المعيشية للأفراد بما يخل باحتياجاتهم الأساسية ، فمع ضرورة تقدير الأفراد للظروف والتحديات التي تمر بها أوطانهم ، ومع أننا نذكر بأن أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) صبروا على الحصار الاقتصادي حتى أكلوا ورق الشجر من شدة الجوع ، فإن ذلك يحتاج منا جميعًا العمل على كسر كل ألوان الحصار والتضييق، بالعمل والإنتاج، والجد والاجتهاد وحسن التكافل الاجتماعي ورعاية الضعفاء والمهمشين ، والضرب بيد من حديد على أيدي المغالين والمحتكرين ، وحسن التدبير ، فنحن نحتاج إلى عمل بلا كلل ، وإنفاق في غير سرف ، وتكافل وتراحم بين أبناء المجتمع بما يعبر بنا جميعًا إلى بر الأمان ، ولا شك أن على رجال الأعمال ومؤسسات المجتمع المدني دورًا هامًّا في إحداث التوازن وسد الحوائج الأساسية للمحتاجين.

* * *

العواصم والحدود وبناء الدول

العلاقة بين عواصم الدول وحدودها هي علاقة تكامل لا علاقة صراع ولا ينبغي أن تكون ، إذ لا غنى لأي دولة من أن يكون لها عاصمة هي القلب والمركز ، وأطراف وحدود بمثابة الأجنحة التي لا تعلو الدول ولا ترتفع بدونها ، لكن المركز يستحوذ في كثير من دول العالم على بؤرة الاهتمام ، فالشواهد والواقع المعاش يؤكدان استحواذ المركز عبر التاريخ على أعلى درجات الاهتمام ، غير أن مستوى هذا الاهتمام يختلف بين الدول المتحضرة والدول المتخلفة ، فالدول المتحضرة لا يمكن أن تهمل جزءًا من أطرافها أرضًا أو سكانًا فتتركه هملاً أو فرصة للضياع أو الاهمال أو الاعتداء ، أو حتى مجرد التفكير في الانفلات أو الانفصال، وقد دخل أحد الشعراء على سيدنا عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) فأنشده قوله :

إن كنت تحفظ ما يليك فإنمـــا عمال أرضك بالبلاد ذئـــــاب
لن يستجيبوا للذي تدعـــــو له حتى تجلّد بالسيوف رقــــــاب

على أن تنمية الأطراف والمناطق الحدودية لا تقع على عاتق الحكومات وحدها أو القيادة السياسية وحدها ، إذ إن العناية والاهتمام بهذه الأطراف والعمل على تنميتها مسئولية تضامنية بين جميع مؤسسات الدولة ، سواء المؤسسات الرسمية ، أم منظمات المجتمع المدني ، أم رجال الأعمال ، فالاستثمار ، والتعليم ، والصحة ، والإسكان ، والثقافة ، والأوقاف ، والآثار ، وسائر الوزارات والهيئات ، والجمعيات العاملة في مجال الخدمات الاجتماعية ، ورجال الأعمال الوطنيون ، كل هؤلاء

يجب أن يولوا اهتماما خاصًا بجميع أطراف الدولة وبخاصة الحدودية منها ، وجعل ذلك أولوية واعتباره قضية أمن قومي من جهة ، وقضية تنموية من جهة أخرى ، إذ ينبغي أن نعمل على تحويل كل أطراف الدولة ومناطقها الحدودية إلى مناطق جاذبة لا طاردة ، ففي حالة عدم اهتمام دولة ما بأطرافها يضطر أبناء هذه الأطراف إلى التوجه نحو المركز والتمركز به ، مما يشكل ضغطا غير عادي على المركز وضواحيه، ويخلق كثيرًا من الأحياء العشوائية حوله، ويسهم في صنع نظام طبقي تنتج عنه مع مرور الزمن أمراض ومشكلات اجتماعية تحتاج إلى حلول غير تقليدية لعلاجها.

أما في ظل اهتمام الدول بالاستثمار في أطرافها ومناطقها الحدودية ، وتوفير الخدمات اللازمة لأبنائها من : الإسكان ، والصحة ، والتعليم ، والثقافة ، وسائر الخدمات التي تطلبها مقومات الحياة المستقرة بأرضهم وموطن نشأتهم، مع توفر فرص العمل والإنتاج فإن ذلك كله يؤدي إلى ارتباط أبناء هذه المناطق بأرضهم ، وحفاظهم على كل ذرة رمل أو تراب من ثراها الندي ، مع ولاء وانتماء وطني خالص.

وفي حالة توفر عوامل جذب وحوافز للعمل بهذه المناطق والاستثمار الجاد فيها كما يحدث الآن من اهتمام الدولة بمناطق سيناء ومطروح والإسماعيلية الجديدة وحلايب وشلاتين والوادي الجديد ، ومناطق الظهير الصحراوي بصفة عامة ، فإن هذه المناطق ستتحول إلى مناطق جاذبة ، مما يحدث توازنًا كبيرًا في التوزيع الجغرافي ، والسكاني ، ويوفر حياة كريمة لأبناء هذه المناطق ، ويخفف الضغط على المركز وعلى

ما يُقدم به من خدمات لا غنى عنها للمقيمين به ، أو ما تتطلبه طبيعة العواصم ومركز الثقل السياسي والاقتصادي بالعالم كله ، من الرقي بها إلى درجة تجعل منها عامل جذب سياحيّ وإبهار حضاري ودلالة على عظمة الشعوب ورقيها .

* * *

النقد بين الإصلاح والهدم

بداية يجب أن نفرق بين النقد الذي يعني تمييز الجيد من الرديء ، والنقض الذي يعني الهدم ، فالأول مأخوذ من نقد الذهب والفضة أي تمييز الصحيح من الزائف منهما ، والثاني وهو النقض فمعناه الهدم ، يقال : مات فلان تحت الأنقاض ، أي : تحت بقايا الهدم.

على أن النقد في اللغة له معنيان: أولهما: هو العيب والذم والقدح، ومنه قول أبي الدرداء (رضي الله عنه) : إن نقدت الناس نقدوك وإن تركتهم تركوك ، أي إن عبتهم وقدحت فيهم عابوك وقدحوا فيك ، فكلك عورات وللناس ألسن.

أما المعنى الثاني وهو النقد المنصف فيعني التمييز بين الحسن والقبيح ، على أنه قد يكون مدحا واستحسانا ، وقد يكون ذما واستهجانا ، وقد يجمع الناقد بين بيان المحاسن والمثالب.

والنقد قد يكون ذاتيا أو انطباعيا ، وقد يكون علميًّا أو منهجيًّا أو موضوعيًّا ، فالأول قائم على مجرد الانطباع الأولي، كأن تقرأ مقالا أو تسمع خطبة أو كلمة أو حديثًا أو ترى لوحة فنان فتعجب بها دون أن تقف على تفاصيل الفن أو وصف أسباب الجودة ، وقد لا تعجب مع عدم الوقوف على التفاصيل الفنية التي هبطت بالفن عن مستوى الجودة.

أما النقد العلمي والمنهجي والموضوعي فهو القائم والمبني على أسس علمية وموضوعية وفنية وهذا النقد يحتاج إلى ثلاثة مقومات أساسية:

أولها : الأدوات المتصلة بالصناعة أو الفن ، فناقد العمل الأدبي

يحتاج إلى الإلمام بعلوم اللغة من النحو والصرف والعروض وعلوم البلاغة والنقد وأدب الكُتَّاب والإلمام بشيء من الثقافة العامة في سائر العلوم الإنسانية والاجتماعية والنفسية وفنون التاريخ والحضارة والعمران وما إلى ذلك ، والناقد الرياضي أو الاقتصادي أو السياسي أو الفني أو التشكيلي لابد أن يلم إلماما كبيرًا بأصول الصنعة التي يتعرض لها ، وإلا كان نقده سطحيًا يحتاج إلى من ينقده و يفنده وربما يتعرض له من يبين قصوره وقد يسفهه.

الأمر الثاني الذي يجب أن يلم به الناقد هو الخبرة والدربة والملكة ، ألا ترى أنك قد تسمع إلى قارئين أو خطيبين مجيدين متميزين غاية التميز ، أو تقرأ لكاتبين من كبار الكُتَّاب مقالين عظيمين مستجمعين لكل أدوات الصناعة ، أو تتعرض لتحليل عملية فنية في غاية الدقة والإبداع ، غير أنك قد تميز بينهما بشيء يدرك ولا يوصف ، كما قال الآمدي : ألا ترى أنك قد تجد فرسين نجيبين بينهما من الاشتراك في علامات العتق والنجابة والقوة والعراقة ما يصعب على اللبيب التفريق فيه بينهما ، غيرأن أهل الخبرة بالخيول يقدمون أحدهما على الآخر ، وكذلك في تقييم لوحات الفنانين وأعمال المبدعين ومواصفات الإبداع والجمال والمعمار وسائر شئون الحياة والصناعات ، مما يجعل من الخبرة والممارسة شيئا آخر إلى جانب امتلاك أدوات الصناعة.

أما أن يقتحم مجال النقد من لا يمتلك لا الخبرة ولا الحاسة ولا أدوات الصناعة والفن أو مؤهلات النقد ، فتلك الطامة الكبرى التي تؤخر ولا تقدم ، وتفسد ولا تصلح ، وتسيئ للناقد قبل المنقود.

الأمر الثالث والأهم هو : الإخلاص والتجرد والبعد عن الأهواء وتصفية الحسابات ، فإن الوقوع في آفات الهوى والميل وعدم الإنصاف طامة كبرى يجب الترفع عنها ، وذلك أن بعض النفوس المريضة لا تعرف سوى الهدم طريقا ، على حد ما قرره الإمام علي بن عبد العزيز الجرجاني في مقدمة كتابه " الوساطة بين المتنبى وخصومه" حيث ذكر أن أهل النقص فريقان، فريق يعمل على جبر نقيصته وستر عورته ، وهذا أمر حسن لأنه قد شغل بأمر نفسه ويعمل على إصلاح حاله وشأنه ، أما الفريق الآخر من أهل النقص فقد قعد به عن الكمال عجزه أو اختياره، أي ضعفه أو كسله ، فلم يجد شيئا أجبر لنقصه وأستر لعورته من انتقاص الأماجد وحسد الأفاضل ، ظنًا أن ذلك قد يجرهم إلى مثل نقيصته أو ينزل بهم إلى مستوى درجته.

وقد امتهن بعض الناس حتى في العصور المتقدمة المدح والهجاء صنعة يتكسبون بها ، وإذا كان التكسب بالمديح والثناء أمرًا معروفا حتى لدى شعراء الجاهلية فيمن عرفوا بمدرسة الصنعة أو التكسب بالشعر كزهير بن أبي سلمى والنابغة الذبياني وغيرهما ، فإن هناك من عُرف بالتكسب بالهجاء حتى في عصر صدر الإسلام كالحطيئة الذي كان يبتز الناس بهجائه وتعرضه لهم ، حتى أن الخليفة عمر (رضي الله عنه) هدده تهديدًا شديدًا إن لم يكف عن أعراض الناس ، فقال : إذن يموت عيالي يا أمير المؤمنين ، فاشترى منه عمر أعراض الناس بأربعين ألف درهم على ألا يتعرض لهجاء أحد ، فكف الحطيئة عن هجاء الناس طوال خلافة عمر ثم عاد إليه بعد وفاته.

وكل هذا لا يمكن أن يصنع حضارة حقيقية أو يقدم للمجتمع الكفاءات التي تستحق الثناء والتقدير الحقيقي ، بل إن هذا النقد قد يسهم في الهدم ، أما النقد الحقيقي المتجرد الموضوعي المبني على أسس علمية وعلى الخبرة والدربة والممارسة وكثرة التحصيل وعلى الإنصاف ، بأن تقول لمن أحسن: أحسنت ، ولمن أساء- بالأدب- : أسأت وقصرت ، وربما تضع يده على وجه الخلل وعلى طرق الإصلاح ، فهذا هو النقد الهادف الذي يبني ولا يهدم ، وينصف ويشجع ، وفي الوقت نفسه يبين ويحذر.

فإذا كانت القيادة مسئولية وأمانة ، فإن ممارسة النقد والتحليل أيضا مسئولية وأمانة ، وكلنا مسئولون أمام الله (عز وجل) ، كل عن الأمانة التي ولاه الله إياها ، كما أننا مسئولون عن بناء وطننا ، والعمل على نهضته ورقيه من خلال سبل البناء والإصلاح لا الهدم والنقض ، ولا النفعية أو حب الظهور ، على أن الغالبية العظمى صارت تميز الغث من السمين ، وصدق الله العظيم إذ يقول في كتابه الكريم: " فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ".

* * *

قصة التماثيل وهدم الحضارات

بداية لا يوجد مسلم واحد على ظهر البسيطة يعبد تمثالاً ، أو يؤمن بذلك، أو يدعو إليه ، أو يفكر فيه ، بل ولا أحد من أصحاب الديانات السماوية على الإطلاق.

وإذا كان الإسلام قد نهى عن صناعة التماثيل في عصر صدر الإسلام فإن العلة في ذلك كانت تدور حول أمرين ، أولهما أن الناس كانوا لا يزالون حديثي عهد بالإسلام ، قريبي عهد بعبادة الأصنام والأوثان ، ظنًّا منهم أنها تقربهم إلى الله (عز وجل) كما حكى القرآن الكريم على لسانهم ، حيث يقول سبحانه وتعالى: " مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى".

الأمر الآخر: إذا كانت هذه التماثيل تصنع لتعبد ، أو كانت صناعتها مضاهاة لخلق الله (عز وجل) ، ومما يؤكد ذلك أنه باستثناء تطهير الكعبة من الأصنام والأوثان التي كانت تعبد لم يثبت أن الصحابة رضي الله عنهم حطموا معبدًا أو تمثالاً أو أثرًا من الآثار في أي بلد من البلاد التي فتحوها ، ذلك أن فهمهم للإسلام كان فهمًا صحيحًا للمقاصد والغايات ، فلم يجمدوا عند ظواهر النصوص ، وإنما تأملوا بعمق وفهم ووعي في غاياتها ومقاصدها ، ومما يؤكد حسن استيعابهم وفهمهم للنصوص ما كان من سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) حين منع سهم المؤلفة قلوبهم مع أنه ثابت بنص قرآني صريح،حيث يقول سبحانه وتعالى:" إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ "، فلما سئل

(رضي الله عنه) : كيف توقف سهما كان يصرفه رسول الله (صلى الله عليه وسلم)؟ فقال (رضي الله عنه) : كنا نعطيهم والإسلام ذليل ضعيف تألفًا لقلوبهم ، أما وقد أعز الله (عز وجل) الإسلام بفضله فلم يعد لصرف هذا السهم وجه.

وأبعد من هذا أيضًا أنه جمد أو عطل حد السرقة عام المجاعة ، وحين كتب إلى أحد عماله ماذا تصنع إذا جاءك سارق ؟ قال : أقطع يده ، قال : فإن جاءني جائع قطعت يدك.

غير أن أمتنا الإسلامية قد ابتليت بأناس عقمت أفهامهم ، وجمدت عقولهم، فأخذوا يحلون ويحرمون بدون علم ولا فهم ولا دراسة ، وأقحموا أنفسهم وتلاميذهم وأتباعهم وعناصرهم فيما ليسوا له بأهل من شئون الفتوى ، فضلوا وأضلوا ، وفتحوا الباب واسعا أمام قوى عالمية استعمارية وامبريالية تعمل على طمس معالمنا الحضارية ، سواء أكانت عربية ، أم إسلامية ، أم مسيحية ، أم فرعونية ، أم آشورية ، أم بابلية ، أم إغريقية ، أم رومانية ، أم غير ذلك ، لطمس الذاكرة العربية ، ومحو معالم الحضارتين العربية والإسلامية وحتى المسيحية أيضا ، لأنهم أناس حمقى لا خلاق لهم ولا دين ولا قيم ولا مبادئ ، والغاية عندهم تبرر الوسيلة ، مهما كانت فداحة هذه الوسيلة ، حتى لو كانت إبادة للبشر ، وتدميرًا للحجر ، وإهلاكا للحرث والنسل ، وطمسا لمعالم الحضارة الإنسانية.

وأسوأ ما في هذا الأمر أنه يرتكب باسم الإسلام ، ومن أناس يحسبون أنفسهم عليه ظلما وعدوانا ، وهو منهم براء ، وحتى لو كذبوا على أنفسهم وأوهموا ضحاياهم من الشباب الملتحقين بهم بأنهم على

الحق ، فهم كما قال الحق سبحانه:" وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ " ، ويقول سبحانه: " قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا " ، ويقول سبحانه: " وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ" .

وقد أكد فضيلة الإمام الأكبر أ.د/ أحمد الطيب شيخ الأزهر ، كما أكدت كل من وزارة الأوقاف ودار الإفتاء المصرية ، أنه لا يجوز الاعتداء على هذه المعالم الحضارية بأي لون من ألوان الاعتداء هدما أو تشويهًا أو بيعًا أو نهبًا أو تدميرًا ، وأن الاعتداء عليها هو اعتداء على الحضارة والتراث الإنساني.

على أن الأمر الذي يلفت النظر ويثير الحيرة والدهشة ويدفع إلى العديد من الأسئلة هو موقف العالم الغربي والمؤسسات الدولية وصمتها الرهيب عن هذه الجرائم التي لو حدثت في أي مكان آخر من العالم غير منطقتنا العربية لقام العالم كله ولم يقعد . وإذا كان ذلك شأن أعدائنا الذين يخوضون ضدنا حروبا غير شريفة ، فإن ما يزيد من الجرح والألم هو تلك الفتاوى التي تدعم هذا العوج في التفكير وتغذيه ، مما يجعلنا نؤكد على ما أكدنا عليه مرارًا وتكرارًا من الحاجة الملحة إلى إصدار قانون ينظم شئون الفتوى ويقصرها على أهل الاختصاص دون سواهم .

بين الكفاءة والولاء

إذا اجتمعت الكفاءة مع الولاء للوطن ، والولاء للعمل ، والولاء للمهنة ، والولاء للمكان الذي يعمل به الإنسان ، فذاك أمل منشود ، أما إذا كان الولاء لشخص ما ، أو جماعة ما ، أو حزب ما ، هو مناط الاختيار والتقديم على حساب الأمانة أو الكفاية أو الكفاءة فهذا أمر جد خطير ، سواء في مقاييس الشرع ، أم في مقاييس الوطنية ، وهما مرتبطان لا ينفكان ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " مَنِ اسْتَعْمَلَ رَجُلاً عَلَى جَمَاعَةٍ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ فِيهِمْ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْهُ ، فَقَدْ خَانَ اللَّهَ ، وَرَسُولَهُ ، وَجَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ "، على أن الولاية أيا كان شأنها كبيرًا أو صغيرًا تتطلب الأمانة والكفاءة معا ، يقول الحق سبحانه على لسان يوسف (عليه السلام): " قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ " ، ويقول سبحانه على لسان ابنة شعيب (عليه السلام) في شأن موسى (عليه السلام): " يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ " ، فلا الأمانة وحدها تجدي ولا العلم وحده يغني.

ولما سأل أبو ذر الغفاري النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يوليه قال له النبي (صلى الله عليه وسلم) : " يا أبا ذر إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة ، إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذي عليه فيها "، وقد ولَّى النبي (صلى الله عليه وسلم) كلاً من خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما مع حداثة إسلامهم قيادة الجيش وفيه كبار الصحابة والسابقون في الإسلام ، لما كان يتمتعون به من كفاءة وكفاية وخبرة بفنون الحرب وضروب القتال والنزال.

أما تقديم الولاءات الخاصة فيعيدنا إلى العام الأسود ، عام الأهل والعشير ، وتقديم الولاء لمكتب الإرشاد على سائر الكفاءات ، كما يردنا إلى عقود ساد فيها الفساد الإداري الذي ما زلنا نعاني من آثاره ، حيث كان التقديم للوصوليين ولبعض المنافقين والمتزلفين ، ومن يحسنون طرق الرشوة والمحسوبية والواسطة ، فنقدم غير الأكفاء على الأكفاء ، فكان الظلم والإحباط ، وأصبح هَمُّ غير الأكفاء أن يستروا عوراتهم بإبعاد الأكفاء عن طريقهم من جهة ، وأن يعملوا على استرداد ما دفعوه من أجل الوصول إلى ما وصلوا إليه أضعافا مضاعفة من جهة أخرى ، ومن هنا تأتي حرب سيادة الرئيس على الفساد والمفسدين ، وحرصه الشديد على اجتثاث الفساد من جذوره.

ولا شك أن هؤلاء الذين يتسلقون على أكتاف الأكفاء بطرق وأساليب غير شرعية ولا قانونية ، لا يعملون إلا على إرضاء من فوقهم ، حتى لوكان ذلك على حساب دينهم وضميرهم أو على حساب مصلحة العمل أو المصلحة الوطنية.

ولا شك أن هؤلاء النفعيين الوصوليين لا يمكن أن ينهضوا لا بوطن ولا بمؤسسة ولا بأمانة ، لأنهم لم يكونوا لها أهلا، ولن يحرصوا على تصعيد الأكفاء ، بل إن نفوسهم في الغالب ستكون مليئة بالحقد على هؤلاء الأكفاء المتميزين ، وسيكونون حريصين كل الحرص على تصعيد الأضعف الذي يدين لهم بالولاء الكامل، ولا يمكن له أن يراجعهم أو أن يعترض على شيء من تصرفاتهم أو ينتقد عملا من أعمالهم.

ولعل من أكبر الأخطاء التي ارتكبتها جماعات الإسلام السياسي

هو انخداعها أو خداعها بالمظاهر الشكلية ، وحصر الدين في الشكليات ، واعتبار الالتزام ببعض الشعائر التعبدية هو أهم مقومات القيادة بل أهم شروطها وموجباتها، فأكثر الناس ولاء للجماعة هو أكثرهم تأهلا لتولي المناصب ، فقد تجد من كان بالأمس لا يكاد يحسن شيئًا في دنيا الناس يتولى أمرًا خطيرًا من مقاليد أمورهم ، مما لا علاقة له به ولا خبرة له فيه.

ولعل ما حدث في وزارة الأوقاف المصرية فور تولي عناصر الجماعة الإرهابية لمقاليد السلطة خير شاهد على ذلك ، فقد أتوا بأناس من جهات لا علاقة لها بعمل الأوقاف ولا بإدارتها ولا بفنياتها ليعتلوا أعلى المناصب التنفيذية فيها لمجرد الولاء للجماعة، ولم يكن الأمر قصرًا على الأوقاف وحدها ، بل عمت الأخونة كثيرًا من أجهزة الدولة ، في سعار مقيت ، وشهوة جامحة للسلطة ، وإقصاء ربما لم يشهد عصرنا الحديث مثله لكل الكفاءات الوطنية المخلصة من خارج أبناء الجماعة ، مما عجل بسقوطهم سقوطًا ذريعًا ربما لم يشهد تاريخنا الحديث مثله ، وكشف حقيقتهم للعالم كله ، مما يجعلنا نؤكد أنها نهاية هذه الجماعة التي تأكد للجميع أنها تاجرت بالدين وزايدت به مزايدة رخيصة ، وظلت تخدع الناس زمنا طويلا ، حتى كشف الله (عز وجل) أمرهم ، وعرف القاصي والداني خبث طويتهم ، ولم يعد لهم من موال سوى بقايا النفعيين والمكابرين منهم.

على أننا ينبغي أن نفيد من كل ذلك بالبعد عن الولاءات الزائفة والكاذبة وغير الشرعية وغير الوطنية ، وأن نسند الأمر إلى الأجدر على

القيام به ، لأن هذه المرحلة لا تحتمل غير القوي الأمين ، الحفيظ العليم، الوطني المخلص .

* * *

نحـــو توظـــيف أمـــثل لأمـــوال الزكـــاة

لاشك أن الزكاة إذا وُظِّفت توظيفا صحيحًا في مصارفها الشرعية تسد ثغرة كبيرة في احتياجات الفقراء والكادحين والمصالح العامة للوطن ، وإذا سَخَت نفس الأغنياء والقادرين بالصدقات والقيام بواجبهم في باب فروض الكفايات من إطعام الجائع ، وكساء العاري ، ومداواة المريض ، وإعانة المحتاج ، والإسهام الجاد فيما يحتاج إليه الوطن من إصلاح وسلاح وعتاد فإن وجه الحياة لأي وطن سيتغير ، ولن يكون بين أبنائه محتاج ولا متسول ، يقول الإمام على بن أبي طالب (رضي الله عنه) إن الله عز وجل قسم أقوات الفقراء في أموال الأغنياء ، فما جاع فقير إلا بشح غني ، فإن وجدت فقيرًا جائعا فاعلم أن هناك غنيا ظالما لم يُخرج حق الله في ماله ، ولم يف بواجبه تجاه مجتمعه.

وإذا استثمر الوقف استثمارا صحيحا إلى جانب ذلك كله لصالح الوطن أدى ذلك مجتمعًا إلى الإسهام في نهضة حقيقية لوطننا الغالي ، بل ربما فاض الخير إلى دول أكثر فقرًا نحن في حاجة أن نمد لها يد العون كبعض دول حوض النيل التي نحتاج إلى التواصل والتعاون العلمي والثقافي والخيري والإنساني معها على المستويين الحكومي والشعبي بمؤسساته المدنية القوية التي يمكن أن تنفذ مشروعات كبيرة أو عملاقة في تلك الدول وغيرها من الدول الإفريقية الفقيرة كبعد استراتيجي وجزء من أمننا القومي ، وهناك نماذج كثيرة مشكورة في هذا المجال لبعض مؤسسات المجتمع المدني.

الزكاة حق أصيل في المال :

وأؤكد على حقائق أولها: أن الزكاة حق أصيل في المال ، وركن رئيس من أركان الإسلام كالصلاة والصيام سواء بسواء، وقد قال سيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) : ثلاث في القرآن الكريم نزلت مقرونة بثلاث لا تقبل واحدة منها دون الأخرى ، وهى قوله تعالى: "وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرّسُولَ" إذ لا تقبل طاعة الله مع معصية رسوله (صلى الله عليه وسلم)، وقوله تعالى: "وَأَقِيمُوا الصّلاةَ وَآتُوا الزّكَاةَ" فمن ضيّع الزكاة مع وجوبها عليه لم تغن عنه صلاته من الله شيئا ، وقوله تعالى:" أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيّ الْمَصِيرُ" فمن لم يشكر لوالديه جميلهما وصنيعهما لم يشكر الله عز وجل ، ويقول سبحانه في شأن كانزي المال ومانعي الزكاة: "وَالّذِينَ يَكْنِزُونَ الذّهَبَ وَالْفِضّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ".

الأمر الثاني: أن الإسلام قد دعا إلى الصدقة والإكثار منها يقول سبحانه: "مَثَلُ الّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "ما نقص مال من صدقة" ويقول (صلى الله عليه وسلم): "خير الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح ترجو الغنى وتخشى الفقر ، ولا تُمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان وقد كان لفلان" ، ويقول (صلى الله عليه

وسلم): "ما من يوم إلا وينادي ملكان يقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا"، ويقول الحق سبحانه: "هَاأَنتُمْ هَؤُلاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ".

مكمن الخلل وإصلاحه:

لاشك أن الخلل لا يخرج عن أن يكون من جهة الدافع أو جهة متلقي الزكاة أو من الجهة الوسيطة سواء أكانت شخصا أم جمعية أم مؤسسة.

فالخلل الذي يأتي من جهة الدافع إما أن يكون بعدم الدفع أصلا، وإما بالتحايل عليه ، وإما بدفعه دون تمحيص أو تدقيق في أمر الجهة التي يدفع لها.

وهنا ينبغي أن يركز الخطاب الديني على وجوب الزكاة وأهمية إخراجها ، والإثم الشديد المترتب على منع حق الله عز وجل في المال مع التأكيد على أن الغني لا تبرأ ذمته بمجرد إلقاء المال أي إلقاء وكيف تأتى له ، فبعض الفقهاء على أن الغني إذا دفع المال إلى من ظنه فقيرًا فبان خلافه لم تسقط عنه الزكاة ، فعليه أن يتحرى في المصارف الشرعية وفى أمانة ودقة وشرعية الجهة التي يدفع إليها زكاته حتى تبرأ ذمته أمام الله عز وجل ، وتسهم زكاته في الثمرة المرجوة التي شرعت من أجلها الزكاة.

والخلل الذي يأتي من جهة الآخذ إنما يأتي من ضعف الوازع الديني لدى بعض من تسول لهم أنفسهم الحصول على المال من أي طريق حتى لو كان فيه إراقة ماء وجوههم ، وهؤلاء علينا أن نذكرهم بمنهج الإسلام وبالحس الإنساني السليم الذي ينأى بالقادر عن العمل على التسول أو دناءة النفس ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " إن المسألة لا تحل إلا لذي فقر مدقع ، أو ذي غرم مفظع ، أو دم موجع" ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " المسائل كدوح يكدح بها الرجل وجهه فمن شاء أبقى على وجهه ومن شاء ترك ".

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت " .

فينبغي التأكيد على نهي الإسلام عن المسألة بدون حاجة حقيقية ، وعن ذل السؤال ، وأن الأبي الكريم لا يمكن أن يعرض نفسه لما لا يليق بالعفيف الكريم ، وأن اليد العليا المتصدقة خير وأكرم من اليد السفلى الآخذة ، مع التأكيد على أهمية العمل وقيمته وحث الإسلام عليه ، وبيان أن الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله ، وأن خير الناس من يأكل من عمل يده ، ولا يكون عالة على الآخرين وقد قال الشاعر الجاهلي الشنفرى الأزدي:

وأستف ترب الأرض كي لا يرى له عليّ من الطول امرؤ متطول

ويقول البارودي :

خلقت عيوفًا لا أرى لابن حرة عليّ يدًا أغضي لها حين يغضب

أما جهة الخلل الثالثة فهي آلية الجمع والتوزيع فمع إيماننا بدور بعض مؤسسات المجتمع المدني في التخفيف من معاناة الفقراء والكادحين سواء من خلال نفقات أم من خلال مشروعات خدمية ، وبخاصة الطبية منها، فإنني أرى أن هذه الجهات تحتاج إلى الآتي:

أ- أن تكون تحت مراقبة دقيقة لأجهزة الدولة وأن تقوم هذه الأجهزة بالمتابعة والمراقبة على الوجه الأكمل ، وأن تكون هناك شفافية واضحة في إعلان الميزانيات ، والنفقات والمكافآت مع ترشيد الإنفاق الإداري إلى أقصى درجة ممكنة.

ب- أن تكون هناك خارطة واضحة لوجود هذه الجمعيات ، ونطاقها الجغرافي ، وأنشطتها، بحيث لا تصب كلها في مجال واحد أو مجالات محدودة ، مع إهمال مجالات ربما تكون أكثر أهمية وحيوية للمجتمع.

ج- أن تتولى جهة ما ، ولتكن وزارة التضامن الاجتماعي شبكة ربط وتنسيق إلكترونية تربط من خلالها المستفيدين بالمنفقين ، وبمؤسسات المجتمع المدني في نطاقها الجغرافي أو الخدمي ، بحيث تنتفي ظاهرة المقيدين أو المستفيدين بحرفية تسوليّة من جهات أو جمعيات متعددة في حين لا تصل الزكاة والصدقات إلى مستحقيها الحقيقيين.

د- أن تحدد أهداف وأغراض واضحة قد يتضافر فيها الجميع ، أو تخصص كل جهة أو جمعية لغرض منها ، كإطعام الجائعين وعلاج المرضى ، وسداد ديون الغارمين ، وهى مناط الحملة التي بدأت بها وتبنتها وزارة الأوقاف المصرية.

الجمال والبهجة والذوق السليم

الإسلام دين الحضارة والرقي ، دين الكمال والجمال ، دين البهجة والسعادة ، وكل نصوصه وتوجيهاته وطرقه ومسالكه تؤدي إلى ذلك ، بل إن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قد أكدا هذه المعاني ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : " وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ " ، ويقول سبحانه وتعالى : " الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى" ، " وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ "، ويقول سبحانه وتعالى : " وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ " ، ويقول سبحانه : " أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ "، " مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ "، ويقول سبحانه في شأن السماوات العلا : " وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ "،" وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ " .

بل لقد أمرنا القرآن الكريم بأن نتجمل أحسن التجمل ، وأن نأخذ زينتنا عند كل مسجد ، فقال سبحانه : " يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ " ، وعندما قال نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي

قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ ، قَالَ رَجُلٌ : إِنَّ الرَّجُلَ ، يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا ، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً ، قَالَ : إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ" ، ولما أخبره سيدنا الْمُغِيرَةُ بْن شُعْبَةَ (رضي الله عنه) أَنَّهُ خَطَبَ امْرَأَةً ، فَقَالَ له النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : " انْظُرْ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا ".

وكان (صلى الله عليه وسلم) يحب الطيب ، وقد دعا إلى طلاقة الوجه والمحيا ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : " لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ " ، وجعل إدخال السرور على الناس من أعظم القربات إلى الله (عز وجل) ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : " من أدخل السرور على مسلم كان على الله (عز وجل) أن يرضيه يوم القيامة " ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : " وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ (عز وجل) سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ"، ودعا (صلى الله عليه وسلم) أصحابه إلى لبس أحسن الثياب عند الجُمع والأعياد والمناسبات العامة.

على أن الجمال الحقيقي لا يقف عند حدود الشكل إنما يتجاوزه إلى جمال الجوهر ، وجمال المعدن ، وجمال الأخلاق ، وجمال الطباع ، يقول مصطفى صادق الرافعي (رحمه الله) : إن خير النساء من كانت على جمال وجهها في أخلاق كجمال وجهها وكان عقلها جمالا ثالثا ، فهذه المرأة إن أصابت الرجل الكفء ، يسرت عليه ثم يسرت ثم يسرت ، ويقول الشاعر:

إِذا المَرءُ لَم يُدنَس مِنَ اللُؤمِ عِرضُهُ

فَكُــلُّ رِداءٍ يَرتَديــــهِ جَميــــلُ

تُعَيِّرُنـــا أَنّـــا قَليـــلٌ عَديدُنـــــا

فَقُلــتُ لَهــا إِنَّ الكِـــرامَ قَليـــلُ

وَمــا ضَرَّنـــا أَنّـا قَليـــلٌ وَجارُنـــا

عَزيـــزٌ وَجـــارُ الأَكثَريـــنَ ذَليـــلُ

فيجب علينا جميعًا أن نتجمل بجمال الإسلام في سمتنا ، وفي مظهرنا ، وفي بيئتنا ، وفي مدارسنا ، وفي معاهدنا ، وفي حدائقنا ، وفي متنزهاتنا ، وفي أماكننا العامة ، وألا نشوه معالم الجمال والبهجة بما ينفر الطبع السليم والذوق الراقي.

على أن من أهم معالم الذوق والجمال والرقي تخير الكلمة الراقية الحلوة الصافية ، فقد مرَّ سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) على قوم يوقدون نارًا ، فكَرِه أن يقول لهم : السلام عليكم يا أهل النار ، إنما قال: السلام عليكم يا أهل الضوء ، كما دعانا الإسلام إلى تخير الأسماء الحسنة ذات الدلالة الراقية ، وأن نبعد الأسماء المنفرة ، وعن كل ما ينفر منه الطبع والذوق والحس الإنساني السليم، وقد أمرنا القرآن الكريم أن نفعل ما هو أجمل ، وأن نقول ما هو حسن بل ما هو أحسن ، فقال سبحانه : " وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا " ، وقال سبحانه : " وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ "، فليكن شعارنا " الذوق والرقي والجمال" ، فالذوق السليم الراقي هو القادر على الإحساس بهذا الجمال ، وعلى إشاعته على من حوله وفي مجتمعه.

الصديق الذي نبحث عنه

الصديق الذي نبحث عنه هو من قال عنه مصطفى صادق الرافعي (رحمه الله): هو من إذا غاب لم تقل إن أحدًا غاب عنك ولكن تشعر أن جزءًا منك ليس فيك ، فهو قطعة منك ، ليس ذلك الصديق الذي يماسحك كما يماسحك الثعبان ، ويراوغك كما يراوغك الثعلب أو يقبع منك كما يقبع القنفذ ، فهؤلاء الأصدقاء لا تجدهم إلا على أطراف مصائبك ، فهم كالذباب لا يقع إلا حيث يكون العسل إن الصديق الحق الذي نبحث عنه ، هو من قال عنه الإمام الشافعي (رحمه الله) :

إن الصديق الحق من كان معك
ومن يضــر نفســه لينفعـــــك
ومن إذا ريب الزمــان صدعـــك
شتت نفســه فيــك ليجـمعك

لا هذا الذي قال عنه الشاعر القاضي العماني أبو سرور :

مالي أراك وأنت كنت صديقي
باعدتني زمنا بكل عقــــوق
قد كنت من أعددته لنوائبـي
لو عضني ناب الزمان بضيــق
أوحى إليك بأن دهري عقني
فطفقت أنت تعين بالتصفيــق
ومتى تبينت الحقيقة أننــــي
جللا حللت بمنصب مرمــــوق

قد جئتني تسعى تهنئ بالمنى

عجبًا لأمرك في رضًا وعقــوق

إن المحبة في الفؤاد مكانهـا

تبـدو حقـائقـها مع التضييـــق

وقد قيل لأحدهم : من أصدقاؤك ؟ فقال : لا أعلم ، قيل له : لماذا؟ قال : لأن الدنيا مقبلةٌ عليّ ، فإن أدبرت عرفت عدوي من صديقي ، لأن أكثر الناس يدورون مع الزمان حيث دار ، فإن كان معك كانوا معك، وإن كان عليك كانوا عليك ، ولذا قالوا : الصديق وقت الضيق، وقال الشاعر:

جــزى الله المصائب كل خير

عرفت بها عدوي من صديقي

وقال آخر :

رأيت الناس قد ذهبـــو ا	إلى مــن عنــده ذهـــب
ومن لا عنـــده ذهـــب	فعنه النـاس قــد ذهبــوا
رأيـــت النـــاس منفضـــه	إلى مـــن عنـــده فضـــه
ومــــن لا عنـــده فضـــه	فعنــه النـــاس منفضـــــه
رأيت الناس قـد مالـــوا	إلى من عنـــــده مـــالُ
ومــن لا عنـــده مـــال	فعنـه النـاس قـــد مالــوا

وقال الآخر:

يُحيّا بالسـلام غني قــوم	ويبخل بالسلام على الفقير
أليس الموت بينهما سواء	إذا ماتـوا وصاروا في القبـور

إن الصديق مشتق من الصدق ، فهو من يصدقك في السر والعلن ، في البأساء والضراء ، في المنشط والمكره ، من يحب لك ما يحبه لنفسه ، ويكره لك ما يكره لنفسه ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ" (رواه البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ" (رواه البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ : إِمامٌ عادِلٌ ، وشابٌّ نَشَأَ في عِبادة الله تعالى، ورَجُلٌ قَلْبُه مُعَلَّقٌ بالمساجد، ورَجُلانِ تَحَابَّا في الله: اجْتَمَعَا عليه وتَفَرَّقَا عليه، ورجلٌ دَعَتْه امرأةٌ ذاتُ مَنْصِبٍ وجَمَالٍ فقال: " إني أَخاف الله "، ورجلٌ تصدَّق بصَدَقَةٍ ، فأَخْفَاهَا حتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُه ما تُنْفِقُ يَمِينُه، ورجلٌ ذكر الله خالياً، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ " (متفق عليه) .

وروي " أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى ، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا ، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ (رواه مسلم) ، وفي الحديث القدسي : "وَجَبَتْ مَحَبَتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فيَّ ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ " (مسند أحمد)، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) " الْمُتَحَابُونَ فِيَّ اللَّهِ لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَغْبِطُهُمُ الشُّهَدَاءُ " (المستدرك على الصحيحين) ، فما أجمل أن تكون

العلاقات والصداقات خالصة لوجه الله عز وجل ، قائمة على الحب والمودة والإنسانية والإيثار ، مبنية على المروءة والقيم والأخلاق السوية، بعيدًا عن كل ألوان الأنانية والنفعية والانتهازية المقيتة .

* * *

البغي وسوء العاقبة

البغي وسوء العاقبة أمران متلازمان لا ينفكان ، يقول الحق سبحانه:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ "، ويقول سبحانه : " فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنصَرُونَ " ، ويقول سبحانه : " فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ " ، وقد قرر أهل العلم أن الله (عز وجل) ينصر الأمة العادلة ولوكانت كافرة ، ولا ينصر الأمة الظالمة الباغية ولو كانت مؤمنة.

والبغي قد يكون بغي أفراد ، وقد يكون بغي جماعات ، وهو من يطلق عليهم " البغاة "، وقد يكون بغي دول ، وما من شخص أو طائفة أو جماعة بغت وطغت واستعلت وتجبرت إلا أخذها رب العزة (عز وجل) أخذ عزيز مقتدر ، يقول الحق سبحانه : " وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ " ، ويقول (عز وجل) في شأن قارون : " إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْأَلُ عَن

ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ المُنتَصِرِينَ " .

وفي قصة صالح عليه السلام مع قومه ، يقول الحق سبحانه : " فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ " .

وفي قصة شعيب عليه السلام مع قومه يقول رب العزة (عز وجل) في شأنهم لما طغوا وتجبروا : "وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ " .

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ"، فالظلم ظلمات يوم القيامة ، ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله.

ومن هنا فإنني أؤكد أن عاقبة الدول الباغية إلى زوال ، ولله در شاعر النيل حافظ إبراهيم ، حيث يقول في قصيدته الرائعة " مصر تتحدث عن نفسها " :

كـــم بغت دولة عليَّ وجــارت ثم زالـــت وتلك عقبى التعدي

ما رمــاني رام وراح سليـــما من قديـــم عنــاية الله جندي

فالدول التي تقوم على البغي والحضارات التي ترسخ للظلم تحمل عوامل هدمها وسقوطها ، بل إن هذا البغي ليعجل بسقوط مدوي وسريع.

والجماعات التي تقوم على الاستعلاء والإقصاء والظلم والبغي وتجاوز الحد في الإجرام كتلك الجماعات التي تتبنى عمليات الانتحار والتفجير والتدمير ، وتستحل ذبح الإنسان وحرقه والتمثيل به ، وإذلال البشر ، وبيع الحرائر سبايا ، وهدم الحضارات ، وتخريب العامر ، ونقض البنيان ، وإحراق الأخضر واليابس ، وإهلاك الحرث والنسل ، إنما تحمل عوامل سقوطها وسر دمارها وهلاكها ، لأن الله (عز وجل) لا يحب الفساد ولا الإفساد ولا المفسدين ، ومن ثمة فإني أبشر بهلاك عاجل لداعش وأخواتها من القاعدة ، وأعداء بيت المقدس ، وبوكوحرام ، وسائر الجماعات الإرهابية والظلامية والمتطرفة والمعوجة ،" وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ".

* * *

الرشوة وأثرها في هدم الدول

إذا كانت الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والحال فإن ذلك ينطبق انطباقا شديد الوضوح على بعض الفتاوى التي كانت تتعلق بشأن الرشوة ، ففي زمن شاع فيه الفساد وطمَّ ، ولم تكن الحكومات تواجه الراشين والمرتشين بحسم أفتى بعض الناس بأن الإثم على المرتشي ، أما الراشي فإن كان مضطرًا فإنه يكون معذورًا باضطراره ، وهذه الفتاوى التي بنيت على مراعاة ضعف الإيمان عند الناس فتحت أبوابا واسعة لمزيد من الرَّشى والفساد ، كما فتحت الطريق واسعًا أمام أصحاب النفوس الضعيفة ليتعلقوا بالضرورة وأنهم مضطرون ، حتى صار الكثير من الأبواب لا يفتح إلا بالرشوة أو المحسوبية ، أما وأننا أمام دولة عظيمة ونظام حكيم يواجه بقوة وشراسة وبلا أدنى هوادة كل ألوان الفساد والرشي والمحسوبية واستغلال النفوذ فإن الواجب شرعًا على جميع المواطنين مساعدة أجهزة الدولة في القضاء على الأدواء القاتلة ، والعمل على منع الفساد قبل وقوعه بالنصح ، وعدم المشاركة فيه أو الرضا به أو السكوت عنه بأي شكل من الأشكال.

كما أنني أدعو إلى تعديل قانوني يجرم المشاركة بأي شكل في عملية الرشوة وكل المشاركين فيها راشيًا ومرتشيًا ووسيطًا، ولا سيما بعد اكتشاف الجريمة بمعرفة أجهزة الدولة اليقظة الواعية ، أما الشهامة الحقيقية والوطنية الصادقة فهي التي تتحقق في الإبلاغ عن الجريمة قبل القبض على المتهمين ، أما بعد القبض عليهم فكل أطرافها شركاء في الجرم والإثم ، ولهذا قال نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " لعن الله الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ وَالرَّائِشَ" ، وهو من يسعى بينهما بالرشوة ، بل هو

الأشد فتنة وخطرًا ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : " الرَّاشِي وَالْمُرْتَشِي فِي النَّارِ"، وقال (صلى الله عليه وسلم):" لعنةُ اللهِ على الراشِي والمرتَشِي" ، وهو وعيد شديد لآكل الرشوة ودافعها والساعي بينهما بأن جعلهم جميعًا مطرودين من رحمة الله، متعرضين لسخطه وغضبه، ولم يتوقف الأمر عند مجرد النهي عنها وذمها، بل تعدى ذلك ليصل إلى حد اللعن الصريح الذي يعني الطرد من رحمة الله تعالى.

والرشوةُ أكل للسحت ولأموال الناس ، والحق سبحانه وتعالى يقول : " وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ" (المائدة: ٦٢ – ٦٣). ويقول تعالى: "...وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمّ تُوَفي كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ" (آل عمران: ١٦١) ، ويقول (عز وجل) : " وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ" (البقرة: ١٨٨) ، ويقول سبحانه : "يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا" (النساء: ٢٩).

وعن كعب بن عجرة الأنصاري (رضي الله عنه) قال: قال لي رسول الله (صلي الله عليه وسلم): "لا يدخلُ الجنةَ لحمٌ نبتَ من سحتٍ، وكلُّ لحمٍ نبتَ من سحتٍ فالنارُ أولى به" ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمْ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" ، و (يتخوضون) أي: يتصرفون في المال بالباطل.

فالرشوة في الإسلام محرمة بأيةِ صورة كانت، وبأي اسم سُميت ، سواء تحت مسمى هدية أم غيرها، فالأسماء لا تغير من الحقائق شيئًا، والعبرة بالمضامين والمعاني لا بالأسماء ولا بالمسميات ، فويل للراشين والمرتشين والساعين بينهم من غضب الله (عز وجل) في الدنيا والآخرة.

* * *

مصر الكبيرة بأخلاقها وحضارتها

لا شك أن مصر دولة عظيمة بقادتها ، وعلمائها ، ورجالها ، ونسائها ، وشبابها ، وفتياتها ، وتاريخها ، وحضارتها ، ودورها الريادي في المنطقة فكريًّا ، وعلميًّا ، وثقافيًّا ، وعسكريًّا ، وحضاريًّا ، وإنسانيًّا ، ولعل أهم ما يميز مصرنا الكبيرة العظيمة هو سعة أفقها ، وقدرتها على التجاوز والتسامح ، والترفع عن الدنايا والصغائر ، فهي تتعامل بمنطق من يقول:

يقابلني السفيه بكل قبح فأكره أن أكـون له مجيبـا

يزيد سفاهة فأزيد حلمًا كعود زاده الإحراق طيبـا

غير أن ثمة فرقًا واضحًا بين الحلم عن قوة ، وبين الضعف والخنا ، فمصر تحلم ولا تضعف ، فهي الأخ الأكبر الذي يريد أن يجمع الشمل ، ويحول بكل ما يملك دون أي تمزيق لأسرته أو تهديد لكيانها ، ولا يمكن له وقت الشدائد أن يتخلى حتى عمن أساء إليه من إخوته.

وإذا كان هذا شأن الأخ الأكبر في أسرته ، فمصر الرائدة لم ولن تتخلى عن قضايا أمتها ، لكنها في الوقت نفسه لن تنجر إلى صراع يمكن أن تمليه أو تفرضه عليها أطراف لا تحسن تقدير الأمور ، ولا تعرف الحنكة ولا الحكمة السياسية المصرية.

إن مصر على مدار تاريخها العريق غنية بالقيم والأخلاق ، لم يعرف عن أهلها غدر ولا خيانة ، ولا اعتداء ولا عدوان على أحد بدون حق ، بل وقفت بما وسعها من قوة وإمكانات إلى جانب الأشقاء والأصدقاء ، وعرفت طوال تاريخها بحسن الجوار ، وبسماحة أهلها ، وحسن عشرتهم ، وخفة روحهم، لم تعرف التشدد ولا التطرف ، وما يحدث من موجات

عنف عابرة أو طارئة هنا أو هناك إنما هو ظواهر شاذة يلفظها المجتمع المصري بفطرته وطبيعته النقية ، وهي سحابة صيف عما قريب تنقشع.

لقد استوعبت الحضارة المصرية كثيرًا من مظاهر الحضارات الأخرى ، وأفادت منها النافع المفيد ، ولفظت الغث والخبيث ، وكان أزهرها بسماحته ووسطيته المعروفة عبر تاريخه الذي أربى على ألف عام أحد أهم ضمانات هذة السماحة والوسطية ، ليس في مصر وحدها ، ولا في العالم العربي وحده ، ولا العالم الإسلامي وحده ، بل في العالم كله ، وقد أنشأت في ذلك أبياتًا أقول فيها :

مصر الكنانة في حفظ وفي كنـف
قد ضُمِّـن الذكـرُ الحكيـم أمانَها
ولئـن كبـت يومًا فظـل زائـــل
عمـا قريـب ينجلـي عـن ساحـها
وتعود للإســلام حصنًا شامـخًا
ولأمـة العـرب الكـرام صمامـها
من رامهـا سلــمًا فتــلك يـــد
أو رامـها حـربًا فنحـــن رجـالـــها
لا نعتدي أبـدًا ولا نرضى الخـــنا
إن الرجـــولة عنـدنـا بنيـانـــها
إحـــدى اثنتيـــن ولا معقّب بعده
النصـرُ نصـرٌ أو نُـرى شهـداءها

وليسألوا التاريخ عن أبطالها

وليفهموا ذكر النبي أجنادها

خير الجنود جنود مصر فاقدروا

أرض الكنانة حقها ومقامها

والأزهر المعمور أزهرنا الذي

حفظ العلوم مدى القرون وصانها

ومضى يعلم كل شبر في الدنا

أن السماحة ديننا عنوانها

صلوا على المختار أحمد إنه

خير البرية كلها وإمامها

* * *

حديث القرآن عن محمد

(صلى الله عليه وسلم)

تحدث القرآن الكريم عن النبي (صلى الله عليه وسلم) حديثًا كاشفًا عن مكانته وأخلاقه وكثير من جوانب حياته ، فهو نبي الرحمة ، حيث يقول الحق سبحانه : "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ"، ويقول سبحانه:" فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ " ، ويقول (عز وجل) : " لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ " .

لقد زكى ربه لسانه ، فقال سبحانه : "وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى" ، وزكى فؤاده ، فقال : " مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى "، وزكى معلمه ، فقال : " عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى "، وزكى خلقه ، فقال : " وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ "، وشرح صدره ، فقال : " أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ "، ورفع ذكره ، فقال : " وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ "، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فقال سبحانه : " إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ " .

وإذا كان موسى (عليه السلام) قد طلب من ربه أن يشرح له صدره في دعائه ، حيث قَال : " رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي "، فإن الله (عز وجل) قد منّ على نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) فشرح له صدره منّة منه وفضلاً، وإذا كان موسى (عليه السلام) قد توجه إلى رب العزة (عز وجل) بقوله: " وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى" ، فإن الله (عز وجل) قد أكرم نبينا (صلى الله عليه وسلم) بقوله تعالى: " وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى"،

فنبينا (صلى الله عليه وسلم) دعوة أبينا إبراهيم (عليه السلام) ، حيث دعا ربه بقوله:"رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " ، وهو بشرى عيسى (عليه السلام) ، حيث يقول الحق سبحانه : " وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ " .

قرن الحق سبحانه وتعالى طاعته (صلى الله عليه وسلم) بطاعته ، فقال سبحانه: " مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ "، وجعل حبه (صلى الله عليه وسلم) وسيلة لحب الله (عز وجل) ، فقال سبحانه: " قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ "، وجعل بيعته (صلى الله عليه وسلم) بيعة لله (عز وجل) : فقال سبحانه : " إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْديهم".

وحذر سبحانه وتعالى من مخالفة أمره (صلى الله عليه وسلم) فقال (عز وجل): " فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ "، مؤكدًا أن الإيمان به (صلى الله عليه وسلم) لا يكتمل إلا بالنزول على حكمه عن رضى وطيب نفس ، فقال سبحانه : " فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا " .

وقد أكرمه ربه حتى في مخاطبته وندائه ، فحيث نادى رب العزة (عز وجل) سائر الأنبياء بأسمائهم : " يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ " ، " يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ " ، " يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا " ،

" يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى " ، " يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ " ، خاطب نبينا (صلى الله عليه وسلم) خطابًا مقرونًا بشرف الرسالة أو النبوة، أو صفة إكرام وتفضل وملاطفة ، فقال تعالى : " يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ "، " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا "، " يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا " ، " يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ"، وعندما شرَّفَهُ الحق (سبحانه وتعالى) بذكر اسمه في القرآن الكريم ذكره مقرونًا بعز الرسالة ، فقال سبحانه وتعالى: " مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ " ، وقال سبحانه وتعالى: " وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ "، وأخذ العهد على الأنبياء والرسل ليؤمنن به ولينصرنه ، فقال سبحانه: " وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ " .

ومن إكرام الله (عز وجل) له (صلى الله عليه وسلم) أن جعل رسالته للناس عامة ، حيث كان كل رسول يرسل إلى قومه خاصة ، أما حبيبنا محمد (صلى الله عليه وسلم) فقد أرسله ربه (عز وجل) إلى الناس عامة ، فقال سبحانه : " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا "، وختم برسالته الرسالات ، وختم به (صلى الله عليه وسلم) الأنبياء والرسل ، فقال سبحانه وتعالى: " مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ".

صلَّى ربه (عز وجل) بنفسه عليه ، وأمر ملائكته والمؤمنين بالصلاة عليه ، فقال سبحانه:" إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا "، وجعل صلاته على المؤمنين رحمة وسكينة لهم، فقال سبحانه:" وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ".

وبهذا نختم وندعو إلى الإكثار من الصلاة والسلام على الحبيب (صلى الله عليه وسلم) ، لأن من صلى على النبي (صلى الله عليه وسلم) صلاة صلى الله بها عليه عشرًا ، كما أن صلاتنا معروضة عليه (صلى الله عليه وسلم) ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يقول: " إِذا سمِعْتُمُ النِّداءَ فَقُولُوا مِثْلَ ما يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا علَيَّ ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى علَيَّ صَلاةً صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ بِهَا عشْرًا ، ثُمَّ سلُوا اللَّه لي الْوسِيلَةَ ، فَإِنَّهَا مَنزِلَةٌ في الجنَّةِ لا تَنْبَغِي إِلاَّ لعَبْدٍ منْ عِباد اللَّه وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُو ، فَمنْ سَأَل ليَ الْوسِيلَة حَلَّتْ لَهُ الشَّفاعَةُ " .

* * *

أرسل الله (عز وجل) نبينا محمدًا (صلى الله عليه وسلم) رحمة للعالمين ، فقال سبحانه: " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ "، وعرف نبينا (صلى الله عليه وسلم) نفسه ، فقال:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ "، وأكد القرآن الكريم ذلك ، فقال : " لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ".

فكتابه (صلى الله عليه وسلم) كتاب رحمة ، حيث يقول الحق سبحانه : " وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ" ، ودينه دين الرحمة والأمن والأمان والسلام للبشرية جمعاء ، دين يرسخُ أسس التعايش السلمي بين البشر جميعًا ، يحقنُ الدماءَ كل الدماء ، ويحفظُ الأموال كل الأموال ، على أسس إنسانيةٍ خالصةٍ دون تفرقة بين الناس على أساس الدين أو اللون أو الجنس أو العرق ، فكل الأنفس حرام ، وكل الأعراض مصانة ، وكل الأموال محفوظة ، وكل الأمانات مؤداةٌ لأهلها ، وبلا أي استثناءات ، وهذا نبينا (صلى الله عليه وسلم) عند هجرته إلى المدينة يترك عليَّ بن أبي طالب بمكة ليردَّ الأماناتِ إلى من آذوه وأخرجوه وجردوا كثيرًا من أصحابه من أموالهم وممتلكاتهم.

ويوم الطائفِ عندما سلطوا عليه عبيدهم وصبيانهم يرمونه بالحجارة حتى سال الدم من قدميه الشريفتين ، وجاءه مَلَكُ الجبال يقول : " يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي اللهُ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ فإِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ" (وهما جبلان بمكة) فَقَالَ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): " بَلْ أقول : اللهم اهدِ

قومي فإنهم لا يعلمون ، إني لأَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يقول لا إله إلا الله "، ولمّا قِيلَ له : ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، قَالَ : " إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً "(رواه مسلم).

فالإسلامُ دين رحمة وسلام للعالم كله ، ولا يوجد في الإسلام قتلٌ على المعتقد قط ، فعندما رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) امرأة كافرة مقتولة في ساحة القتال ، قال (صلى الله عليه وسلم):" مَنْ قتلها ؟ مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ "، بما يؤكد أن القتل ليس مقابلا للكفر ، إنما يكون القتال لدفع العدوان ، فلا إكراه في الدين ، ولا فظاظة في القول ، يقول الحق سبحانه لنبينا : " وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ"، وعندما خاطب القرآن الكريم الكفار على لسان نبينا (صلى الله عليه وسلم) ولسان أصحابه قال: " وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ "، ولم يقل : نحن على هدى وأنتم في ضلال مبين مع تحقق ضلالهم ، بما يعرف لدى علماء البلاغة بأسلوب الإنصاف ، فهذه ثقافتنا التي تنصف الآخر حتى في القول.

لقد أمر الإسلام بالقول الحسن ، فقال سبحانه: " وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا "، للناس كل الناس ، بل قولوا : التي هي أحسن ، " وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ " ، وافعلوا التي أحسن ، "وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ" ، هذا هو نبينا وهذه هي أخلاق من قال : " بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" (مسند

البزار). وإذا كان ديننا إنما هو دين الرحمة ، وكتابنا كتاب الرحمة ، ونبينا (صلى الله عليه وسلم) إنما هو نبي الرحمة، فما بالنا ؟! وما الذي أصابنا؟! وما الذي وصل ببعض المحسوبين على ديننا إلى هذه القسوة؟! وما المخرج ؟ .

لا شك أن عوامل كثيرة كانت وراء ذلك ، منها سيطرة غير المتخصصين على الخطاب الدعوي واختطافهم له لفترات زمنية طويلة ، واعتقاد بعضهم اعتقادًا خاطئًا أن زيادة التشدد زيادة في التدين ، فكل هذه المفاهيم الخاطئة قد صارت في حاجة ملحة إلي تصويبها ، مع التأكيد على أن الإسلام هو دين الرحمة والسماحة واليسر ، فأهل العلم على أن الفقه هو التيسير بدليل ، ولم يقل أحد ممن يعتد بعلمه في القديم ولا في الحديث إن الفقه هو التشدد ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : " يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ " ، ويقول (عز وجل) : " وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ"، ويقول سبحانه : " وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ "، وما خُيّرَ نبينا (صلى الله عليه وسلم) بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، ما لم يكن إثما أو قطيعة رحم ، فإن كان إثما أو قطيعة رحم كان (صلى الله عليه وسلم) أبعد الناس عنه.

* * *

الإسلام يتحدث عن نفسه

الإسلام قطعة ذهب لا تحتاج أكثر من أن نجلي ما علق بها أو ران عليها من بعض الغبار المتطاير أو حتى المتراكم ، لأن المعادن النفيسة لا تصدأ ولا يصيبها العطب مهما كانت عوامل الزمن وتداعياته وأحداثه وتراكماته.

فعلى الرغم مما أصاب صورة الإسلام من جرّاء الجماعات الإجرامية المتطرفة من أمثال داعش ، وبوكوحرام ، والقاعدة ، وجبهة الخذلان ، وأعداء بيت المقدس ، وجند الشيطان ، وجماعة دعم الخراب والدمار المسماة زورًا وبهتانًا وافتراء دعم الشرعية ، تلك الجماعات المأجورة لصالح قوى الشر ، على الرغم من ذلك كله فإن الإسلام بفضل أبنائه المخلصين وعلمائه المتخصصين قادر على محو آثار ذلك كله ، وأن يتحدث عن نفسه ، وأن يعبر عن حقيقته العظيمة السمحة الحضارية الإنسانية النقية ، المتسقة مع فطرة الله التي فطر الناس عليها ، القائمة على أنه حيث تكون المصلحة فثمة شرع الله ، وعلى أنه دين الرحمة والأمن والأمان والسلام للعالم كله ، حيث يقول الحق سبحانه : " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ " ، ولم يقل سبحانه : رحمة للمسلمين وحدهم ، ولا للمؤمنين وحدهم ولا للموحدين وحدهم ، إنما للعالمين كل العالمين ، حيث كرم الله عز وجل الإنسان على إطلاق إنسانيته فقال سبحانه : " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ " .

دين لا يعرف الأذى ، فالمسلم الحقيقي فيه هو من سلم الناس من

لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأعراضهم وأموالهم وأنفسهم ، ولما سئل نبينا (صلى الله عليه وسلم) عن امرأة صوامة قوامة غير أنها تؤذي جيرانها ، قال (صلى الله عليه وسلم) : "هي في النار" ، وهو القائل (صلى الله عليه وسلم) : "والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن " قالوا : من يارسول الله ؟ ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : "من لا يأمن جاره بوائقه" ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) :" مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلا يُؤْذِ جَارَهُ" .

دين يحفظ للإنسان كرامته ، فينهى عن الغيبة ، والنميمة ، والتحاسد ، والتباغض ، والاحتقار ، وسوء الظن لهو دين عظيم ، وذلك حيث يقول الحق سبحانه : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ " ، وحيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " لَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ" .

دين يمنع الظلم والغش ، ولو مع أعدائه ، ويحرم سائر الممارسات الاحتكارية لهو دين عظيم ، وذلك حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " مَنِ احْتَكَرَ طَعَامًا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَقَدْ بَرِئَ مِنَ اللَّهِ وَبَرِئَ اللَّهُ مِنْهُ،

وَأَيُّمَا أَهْلِ عَرْصَةٍ أَصْبَحَ فِيهِمُ امْرِؤٌ جَائِعٌ فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ" ، وحيث يقول (صلى الله عليه وسلم) : " لَا يَحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِئٌ " .

ويقول (صلى الله عليه وسلم): " من غشنا فليس منا " ، وفي رواية "من غش أمتي فليس منا " ، وفي صحيح مسلم "من غش فليس منا" بحذف مفعول غش ليشمل كل ألوان الغش ، وينهى عن غش جميع البشر مسلما كان المغشوش أم غير مسلم ، إذ لا يليق بالمسلم بأن يكون غشاشًا .

دين يعمل على تحقيق الرحمة للإنسان والحيوان والجماد لهو دين عظيم ، وذلك حيث يقول (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ، لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟ " ، فَجَاءَ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ(صلى الله عليه وسلم) : " أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا؟، فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ " .

دين ينهى عن كل ألوان الفساد والإفساد والتدمير والتخريب ، ويعصم الأموال والأعراض والأنفس ، لهو دين عظيم ، وذلك حيث يقول الحق سبحانه : " وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا " ، ويقول الحق : " وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ " ، وحيث يقول سبحانه :"وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ" ، وحيث نهى نبينا (صلى الله عليه وسلم) سيدنا معاذ بن جبل عن أي ظلم أو إجحاف بأموال المستضعفين أو أخذ كرائم

أموالهم فقال له: "يامعاذ ، إِنَّكَ تَأْتِى قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّى رَسُولُ اللَّهِ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ ".

وأخيرًا نستطيع أن نقول إن الإسلام قضية عادلة ودين عظيم وأنه وإن تعرض للهجوم من أعدائه فإن المخلصين من أبنائه قادرون بإذن الله (عز وجل) على تجلية الغبار عنه وعرضه عرضًا صحيحًا من خلال البلاغ الواضح المبين ، الفاهم لفقه المقاصد ، وفقه الواقع ، وفقه المتاح، وفقه الأولويات ، فهمًا يؤهل صاحبه للوفاء بواجب هذا الدين العظيم بما يحمله لصالح الإنسانية جمعاء من سبل السعادة والرقي وما يحمله لمن يعمل به من خير الدارين الدنيا والآخرة .

* * *

لقد خبرت من خلال خبراتي الحياتية والدعوية الإخوان ومسالكهم ، وحيلهم ودروبهم ، واستحلالهم للكذب ، وتحريفهم لمفهوم النصوص و ليّ أعناقها ، وانتهاجهم منهج التقية ، وتدريب ناشئيهم على السرية والكتمان ، والسمع والطاعة الأعميين ، وإغرائهم بالنعيم المقيم في الدنيا والآخرة ، وتأملت حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حيث يقول : " آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ " ، وحديثه (صلى الله عليه وسلم) حيث يقول : " أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ ، فَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا ، فوجدت الإخوان ينقضون ذلك نقضًا عمليًا ، ويسيرون على عكس ذلك تمامًا ، فإذا كان (صلى الله عليه وسلم) قد ذكر العلامة الأولى من علامات النفاق أن المنافق إذا حدث كذب ، فإن الإخوان لا يكذبون مجرد كذب ، إنما يتحرون الكذب ويتدربون ويُدربون عليه تحت عناوين ما أنزل الله بها من سلطان : كالكذب المباح ، أو المواطن التي يجوز فيها الكذب ، أو المعاريض التي فيها مندوحة عن الكذب ، حتى صار الكذب والافتراء والبهتان أصلا من أصولهم الفكرية والحركية ، متجاهلين قول النبي (صلى الله عليه وسلم): " إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ صِدِّيقًا ، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا ".

وإذا كان من أخص صفات المنافق أنه إذا وعد أخلف ، فإنني أظن أن من تعامل أو يتعامل مع الإخوان وبخاصة في المجال السياسي يدرك أنهم لا عهد لهم ولا ذمة ولا أمان ، فقد جُبلوا وتربوا على آليات واضحة للتبرير لأنفسهم ، والتحلل من وعودهم وعهودهم ومواثيقهم.

وإذا كان من صفات المنافق أنه إذا اؤتمن خان ، فإننا قد رأينا الإخوان أنهم حين تحملوا أمانة الحكم ، خانوا الأمانة ، وأقصوا الجميع، وتخابروا مع الأعداء ، وباعوا القضية الدينية والوطنية معًا ، متجاهلين قوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ".

وإذا كان من صفات المنافق أنه إذا خاصم فجر ، فإنني أظن أن تاريخنا الحديث لم يعرف قومًا أكثر لددًا في الخصومة وفجورًا فيها ، واستعدادًا لإراقة الدماء وإهلاك الحرث والناس والإفساد في الأرض من هؤلاء ، وكأني بهم لم يسمعوا قول الله تعالى : " وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ ".

وهل الإسلام المبني على الرحمة تحول عندهم إلى دين عنف ودماء ؟ وهل الإسلام القائم على عمارة الكون تحول لديهم إلى ساحة تخريب وإفساد ؟ وهل الإسلام القائم على حرمة الدماء والأموال تحول عندهم إلى نظرية استحلال لهذه الدماء والأموال ؟ متجاهلين قوله تعالى: " أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ

جَمِيعاً "، وقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " حين نظر إلى الكعبة فقال لها:" مَا أَطْيَبَكِ وَأَطْيَبَ رِيحَكِ ، مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ حُرْمَةً مِنْكِ ، مَالِهِ ، وَدَمِهِ ، وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إِلَّا خَيْرًا " .

حقًّا إنها الفجوة الواضحة والهوة الساحقة بين عظمة الإسلام وإجرام الإخوان ، بين منظومة الأخلاق والقيم التي حرص الإسلام كل الحرص على بنائها وبين الواقع المر الذي عمل على هدم هذه المنظومة أو خلخلتها وتشويه صورتها ، إنه حب السلطة الذي دفع أدعياء الدين إلى المتاجرة به ، والمزايدة عليه ، واللعب بعواطف العامة، واستغلالهم حاجتهم وعوزهم، لإغرائهم ببعض فتات ما يلقى لهم ممن يستخدمونهم ضد دينهم وأوطانهم ، بعد أن ثبت بالدليل القاطع أن الإخوان لا يؤمنون بوطن ولا بدولة وطنية ، فوطنهم الحقيقي هو مصالحهم وتنظيمهم الدولي.

إننا نحذر من أن يخدع بهم عاقل ، أو أن يجعلهم موضع ثقة ، أو أن يدفع إليهم بمال يستخدمونه لمصالحهم ورجالهم وأهلهم وعشيرتهم.

وإننا لنؤكد أن هذه الجماعات كانت نكبة على الوطن حين استخدمها أعداء الأمة لتنفيذ مخططاتهم لتفتيت المنطقة وتمزيق كياناتها في مقابل وعود مكذوبة بسلطة مزعومة زائلة ، وإذا كان التحالف بين الأمريكان والإخوان قائمًا على أساسين: الحكم مقابل أمن إسرائيل من جهة ، والسمع والطاعة لمصالح أمريكا مقابل دعمهم دوليًا من جهة أخرى ، فإن مما يؤكد ذلك ويبرهن عليه أنه في الوقت الذي كان

قيادات الإخوان يصدعون رءوسنا فيه بأن أمريكا هي الشيطان الأكبر كانوا يهرولون تجاهها ، ويولّون وجوههم شطرها للحصول على الأمان ، وعقد الصفقات ، والحصول على الجنسية لهم أو لأبنائهم في انفصام واضح بين الظاهر والباطن ، بين التنظير في الكتب والتطبيق على أرض الواقع ، مما أفقد المجتمع كله الثقة فيهم ، وجعله يخرج عليهم بالملايين ، رافضًا هذا المنهج الذي لا يخدم دينًا ولا وطنًا ، بل يدمر الدين والوطن كليهما ، " وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ".

* * *

الخوف من اللّه

الخوف من الله (عز وجل) إذا تأصل في نفوس العباد وقاهم الله (عز وجل) به كثيرًا من الشرور والمفاسد والآثام ، ولو أننا خشينا الله (عز وجل) حق خشيته ، واستحيينا منه حق الحياء لكان حالنا غير الحال الذي نحن عليه من التصرفات والسلوكيات ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ" ، فالذي يخاف الله (عز وجل) لا يمكن أن يكون كذَّابًا ولا منافقًا ولا مرائيًا ولا مخادعًا ، ولا سارقًا ولا مختلسًا ، ولا عاقًّا ولا مدمنًا ، ولا قاتلاً أو زانيًا ، ولا شارب خمر ، ولا آكلا للحرام ، ولا مانعًا للخير ، ولا معطلاً لمسيرة الوطن ، ولا مفسدًا أو مخربًا ، ولا هدَّامًا ، ولا فاسقًا ، ولا فاحشًا ، ولا سبَّابًا ، ولا بذيئًا ، ولا متطاولاً على خلق الله ، وذلك لإدراكه التام أن الله (عز وجل) مراقب لحركاته وسكناته ، وأنه (سبحانه وتعالى) لا تأخذه سنة ولا نوم : "مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " ، وأنه (سبحانه وتعالى) قد يمهل ولكنه (عز وجل) لا يهمل أبدًا ، حيث يقول سبحانه : " وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ * وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ * وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ

الْأَمْثَالَ " (سورة إبراهيم :٤٢ – ٤٥) ، ويقول سبحانه : " فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ" . (سورة إبراهيم :٤٧).

فمن يخاف من الله (عز وجل) يدرك أن كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به ، وأن المال الحرام سيكون هلاكًا ودمارًا لصاحبه في الدنيا والآخرة ، وأن آكله سيندم حيث لا ينفع الندم في الدنيا والآخرة ، حيث يقول الحق سبحانه : " أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ" (سورة البقرة :٢٦٦) ، ويدرك أنه قد يتكلم بالكلمة لا يلقى لها بالاً يهوى بها في النار بُعد الثريا ، وأن الله (عز وجل) مراقب حركاته وسكناته ومحاسبه على كل لفظ أو كلمة ، حيث يقول الحق سبحانه: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ".

وحيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا ، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ " ، وعندما سأله سيدنا معاذ بن جبل (رضي الله عنه): " يَا رسولَ الله وإنَّا لَمُؤاخَذُونَ بما نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ قالَ : " ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ ! وَهَلْ يَكُبُّ الناسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ ؟" ، ويدرك أن غدًا لناظره قريب ، وأنه إلى أحد سبيلين لا ثالث لهما : فريق في الجنة وفريق في السعير ،

فإما إلى الذين شقوا ، فقد قال رب العزة (عز وجل) في شأنهم : " فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ " (سورة هود :١٠٧) ، وإما إلى الذين سعدوا ، وهم من قال الله (عز وجل) فيهم : " وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ" (سورة هود :١٠٨) ، ويدرك أنه بالاستقامة على الجادة ينال خير الدارين مصداقًا لقوله تعالى : " أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"(سورة يونس :٦٢) ، ويقول سبحانه وتعالى: " إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ" (سورة فصلت :٣٠-٣١).

وعلى الإنسان أن يعلم كما أن رحمة الله (عز وجل) واسعة مصداقًا لقوله تعالى : "وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ" (سورة الأعراف :١٥٦) ، وقوله تعالى : " قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ " (سورة الزمر :٥٣) ، فإن هناك أيضًا عذابًا أليمًا لمن تجاوز وتجبر وطغى ، حيث يقول سبحانه: " نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ " (سورة الحجر :٤٩) ، وحيث يقول سبحانه : " وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ

إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ " (سورة هود :١٠٢) ، وحيث يقول سبحانه : " يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ " (سورة الحج :٢).

* * *

الأرض السبخة والأشجار المثمرة

الأرض السبخة هي تلك الأرض التي لا تنبت كلأ ولا تمسك زرعًا ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ " (رواه البخاري) ، فالذي لا ينفع الله به الناس هو كالأرض السبخة أو القيعان التي لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فخير الناس أنفعهم للناس ، وشرهم من تركه الناس واتقوه وتجنبوه اتقاء فحشه ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ" (رواه البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلْخَيْرِ مَغَالِيقَ لِلشَّرِّ ، وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلشَّرِّ مَغَالِيقَ لِلْخَيْرِ ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الْخَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيْهِ "(سنن ابن ماجه) .

أما أهل الفضل والصفاء فهم من شرح الله صدورهم للإسلام ، وملأها بحب الخير ، فاصطفاهم لقضاء حوائج الخلق ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) :" إِنَّ لِلَّهِ عَبَّادًا اخْتَصَّهُمْ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ ، يُقِرُّهُمْ فِيهَا مَا بَذَلُوهَا، فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا مِنْهُمْ، فَحَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ " ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا خَلَقَهُمْ لِحَوَائِجِ النَّاسِ ، يَفْزَعُ النَّاسُ

إِلَيْهِمْ ، أُولَئِكَ الْآمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " ، هؤلاء هم الأشجار المثمرة ، اليانعة النافعة ، غير أن هذا الإثمار قد يعرضهم لحسد الآخرين أو أحقادهم أو محاولة تعويقهم ، ممن قصرت هممهم ، وشغلوا بالصغائر عن العظائم ، وبهدم الآخرين عن بناء أنفسهم ، وقد قالوا : ولا يقذف بالأحجار إلا الشجرة المثمرة ولا يقذفها إلا الصبية ، أما الرجال فيستحون ، ولا يحوم اللص إلا حول البيوت العامرة فإن حام حول البيت الخرب كان سيد البلهاء ، غير أن رمي الصبية أو قذفهم لا يزيد الوطنيين المخلصين إلا صلابة ، فالضربة التي لا تقصم الظهر تقويه ، ولله در الشافعي حيث يقول :

عــداي لهم فضل علي ومنة — فلا أبعد الرحمن عنّي الأعــاديا
هــم بصروني زلتي فاجتنبتــها — وهم سابقوني فاكتسبت المعــاليا

ويقـــول أبو الأسود الدؤلي :

حَسَدوا الفَتى إِذ لَم يَنالوا سَعيهُ — فَالقَـــومُ أَعداءٌ لَهُ وَخُصــومُ
كَضَــرائِرِ الحَسناءِ قُلنَ لِوَجهِها — حَســدًا وَبَغيًـــا إِنَّــــهُ لَدَميمُ

فالعاقل من ينشغل بالبناء لا بالهدم ، ولا يقابل السيئة بالسيئة ، بل يعفو ويصفح ، ويدفع بالتي هي أحسن ، حيث يقول الحق سبحانه : " وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ " ، نسأل الله أن نكون منهم وأن نتحلى بأخلاقهم وأن نحشر في زمرتهم .

تعظيم ثواب الصدقة

لا شك أن المتصدق إنما يرجو عظيم الثواب الذي أعده الله للمتصدقين والمتصدقات ، حيث يقول سبحانه : " إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً " (الأحزاب :٣٥) ، وحيث يقول سبحانه : " مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنّاً وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ" (البقرة :٢٦١) ، وحيث يقول سبحانه : " خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" (التوبة :١٠٣) ، وحيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ ، وَلاَ يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ إِلَّا الطَّيِّبُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ" ، وحيث يقول (صلى الله عليه وسلم) : "حَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ، وَدَاوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ ، وَأَعِدُّوا لِلْبَلَاءِ الدُّعَاءَ".

وعلى المتصدق أن يتحرى وقوع الصدقة موقعها الذي يجب أن تكون فيه ، حيث يقول الحق سبحانه :" إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي

سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ " (التوبة :٦٠) ، وعليه إن أراد أفضل الثواب وأعلاه أن يجتهد في ترتيب الأولويات ، وأن يدرك أن الأعم نفعًا والأوسع أثرًا مقدم على غيره من الأقل نفعًا أو أثرًا ، وأن ما يحفظ النفس مقدم على ما يدخل في إطار التحسينيات أو الكماليات ، فإطعام الجائع ، وكساء العاري ، ومداواة المريض ، وإيواء المشرد ، مقدم على مالا يعد أساسًا في إقامة حياة الإنسان وحفظها وحفظ كرامته في العيش والحياة.

وإذا أردت عظيم الصدقة فضعها حيث تكون حاجة المجتمع ، فإن رأيت الحاجة أمس إلى المتطلبات الصحية فضعها في علاج المرضى وبناء المستشفيات وتجهيزها ، وإن رأيت الأولوية للتعليم فضعها في بناء المدارس وتأثيثها وصيانتها والإنفاق على طلاب العلم الفقراء ورعايتهم ، وعلى الباحثين وبعثاتهم ، وعلى المراكز والمؤسسات العلمية وتطويرها ، وإن رأيت الأولوية لتحسين البنى التحتية من إقامة محطات مياه الشرب أو مشاريع الصرف الصحي أو تعبيد الطرق وتمهيدها فاجعل صدقتك في هذا الاتجاه ، وإن رأيت الأولوية للعمل والإنتاج فادعم المشروعات الصغيرة وتوفير فرص العمل للشباب ، وإن رأيت الأولوية لعمارة المساجد وصيانتها فاعمد إلى المناطق الأكثر احتياجًا إليها ، حيث يكون الناس في حاجة ملحة إلى مسجد ، سواء في منطقة جديدة كقرى الشباب والظهير الصحراوي والمناطق الجديدة أو اعمد إلى مسجد من المساجد القائمة التي تحتاج إلى إحلال وتجديد كلي أو جزئي أو صيانة فقم بإحلاله وتجديده أو صيانته أو فرشه ، على أن ترجع في كل

شأن تعمل فيه إلى الجهة المختصة التي تستطيع أن تحدد لك الأولويات وأن تدلك على الأعم نفعًا ، لأن الثواب العظيم مرتبط بالقبول وعظيم النفع ، فكلما سدت الصدقة حاجة من حوائج أصحاب الحاجات كانت أكثر نفعا وأعظم ثوابًا ، وكلما كانت الحاجة أشد كان الثواب أعظم ، ومن ثمة على الإنسان أن يتحرى أين يضع صدقته ، حتى يحظى بأعظم الثواب وأعلاه ، كما أن عليه أن يتحرى ألا يقع فريسة للمحتالين والنصابين ممن يحترفون التسول ، لأن إعطاء من لا يستحق من الصدقات يضيعها على من يستحق من جهة ، ويشجع على مزيد من احتراف التسول والبطالة والكسل من جهة أخرى ، ونبينا (صلى الله عليه وسلم) يقول :" إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ: لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ، أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ".

وأخيرًا تأكد أن ما تنفقه اليوم ستجده غدًا ، حيث يقول الحق سبحانه : " وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ (البقرة : ٢٧٢)، ويقول سبحانه: " وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ " (سبإ :٣٩)، وحيث يقول نبينا :" مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ "، وحيث يقول (صلى الله عليه وسلم): " ما مِن يومٍ يُصْبحُ العِبادُ فيهِ إلا مَلَكانِ يَنزلانِ ، فيقولُ أحَدُهُما : اللهمَّ أعط مُنفِقاً خَلَفًا ، ويقولُ الآخَرُ: اللهمَّ أعطِ مُمْسِكاً تَلَفاً".

*   *   *

أدب الحياة الخاصة

الإسلام دين الفطرة السليمة ، حيث يقول الحق سبحانه: " فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ " (الروم :٣٠) .

ولا شك أن الإسلام قائم على كل ما ينمي الذوق ، ويرسخ القيم الإنسانية السوية ، ويسهم في تكوين الرقي الشخصي والمجتمعي ، وينشر القيم الحضارية ، ويؤدي إلى تأصيلها وتجذيرها في نفوس الناس جميعًا .

ولا شك أن للمرء من حياته ما تعود ، فإذا ما تعود الإنسان على التحضر والرقي فيما بينه وبين نفسه صار ذلك سمة وسجية وطبعًا له فيما بينه وبين الناس ، أما إذا حافظ الإنسان على مظاهر التحضر أمام الناس وخالف ذلك فيما بينه وبين نفسه دخل في باب النفاق النفسي والاجتماعي وما يعرف بانفصام الشخصية ، وربما خانه طبعه وما تعوده من مخالفة الذوق والرقي في خلوته فبدا ظاهرًا جليًا عفويًا ولو بدون قصد فيما بينه وبين الناس.

ومن هنا كان حرص الإسلام على تعليم الإنسان القيم الراقية وتعويده عليها منذ نعومة أظافره سواء فيما بينه وبين نفسه أم فيما بينه وبين الناس ، وهذا نبينا (صلى الله عليه وسلم) عندما يرى صبيًّا تطيش يده في إناء الطعام ، فيعلمه ويوجهه بما يهذب ذوقه وطبعه ، فيقول (صلى الله عليه وسلم) :" يَا غُلَامُ ، سَمِّ اللَّهَ وَكُلْ بِيَمِينِكَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ " سواء أكان ذلك فيما بينه وبين نفسه أم حال مشاركته الناس طعامهم ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " أَغْلِقُوا الْبَابَ وَأَوْكِئُوا السِّقَاءَ وَأَكْفِئُوا

الْإِنَاءَ أَوْ خَمِّرُوا الْإِنَاءَ وَأَطْفِئُوا الْمِصْبَاحَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ غَلَقًا وَلَا يَحِلُّ وِكَاءً وَلَا يَكْشِفُ آنِيَةً ".

على أن في قوله (صلى الله عليه وسلم) : (وَأَطْفِئُوا الْمِصْبَاحَ) ما يشير إشارة واضحة إلى ضرورة ترشيد الطاقة ، وقد نهى (صلى الله عليه وسلم) عن الإسراف سرًّا وعلنًا ، خلوًّا أو مجتمعًا ، مما يؤصل في نفس الإنسان ثقافة الترشيد والبعد عن الإسراف والتبذير.

هذا وقد نجد بعض الناس هاشًّا باشًّا بين الناس بحيث يغبطه من لا يعرف حقيقته ، فإذا ما عاد إلى أهل بيته لبس ثوبًا آخر وجلدًا آخر وبدا بوجه آخر يتناقض تماما مع ما يعرف به بين الناس من البشاشة وطلاقة الوجه ، بحيث يقف القاعد ويسكت الناطق من أبنائه وأهل بيته خوفًا لا أدبًا.

مع تأكيدنا أن الإنسان إذا ما هذب ما بينه وبين نفسه وسيطر عليها طواعية ، مراقبة لله عز وجل واحترامًا لذاته كان أكثر سيطرة عليها وأملك لزمامها بين الناس وفي المناسبات العامة ، أما إذا كان غير ذلك فالطبع يغلب التطبع ، وليس الجمال كالتجمل ، مما قد يكشف حقيقته ويعرضه لمواقف محرجة فيما لا يحب أحد أن يحرج فيه .

* * *

حقيقة الشكر

الشكر نعمة من نعم الله (عز وجل) من وفقه الله إليها استشعر أن كل شكر إنما هو نعمة تحتاج إلى شكر جديد .

والشكر سبيل دوام النعم وزيادتها ، يقول الحق سبحانه : " وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ" (إبراهيم :٧)، ويقول سبحانه : " وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ " (النمل:٤٠) ، ويقول سبحانه : " إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ" (الزمر :٧)، ويقول سبحانه : " لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ" (سبإ :١٥).

والكفر والجحود سبيل زوال النعم ، يقول الحق سبحانه في شأن أصحاب الجنة الذين جحدوا حق الله فيما أنعم به عليهم وتعاهدوا على منع حق الفقراء المساكين ، يقول في سورة القلم: " إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ " ، ويقول سبحانه : "وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ" (التوبة :٧٥)، وضرب القرآن لنا مثلا بارزًا بصاحب

إحدى الجنتين في سورة الكهف : " وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا" .

على أن الشكر ليس مجرد عمل قلبي أو لساني أو تقبيل لظاهر اليد وباطنها أو السجود سجدة شكر عند حدوث النعمة فحسب ، إنما هو سلوك وعمل ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة سبأ : " اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ" .

على أن شكر النعمة يكون من جنسها ومن غير جنسها قولا وعملا ، فشكر نعمة العلم هو تعليمها للناس والأمانة في هذا التعليم والاجتهاد فيه، وشكر نعمة المال يكون بتحري الحلال فيه ، وإنفاقه في سبل الخير، وشكر نعمة الحكم وتولي المسئولية الأمانة والعدل والتفاني في خدمة الناس ، وشكر نعمة الجاه استخدامه في خدمة الناس وخدمة الوطن، وشكر نعمة القلم والكتابة هو استخدامها في الخير وصيانتهما عن الشطط والزلل .

كما أن الشكر لا يكون على نعمة المال فحسب ، إنما يكون على سائر النعم ، فالمال نعمة ، والصحة نعمة من أعظم النعم ، والأبناء نعمة ،

والزوجة الصالحة نعمة ، والصديق الوفي نعمة ، والخلق الحسن نعمة ، وراحة البال من أكبر النعم وأجلها ، والرضا بما قسم الله من أجمل النعم وأكثرها راحة للنفس ، والجار الكريم نعمة ، والمواهب نعم ، وصدق الله (عز وجل) إذ يقول : "وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا" ، وكان نبينا (صلى الله عليه وسلم) يقول للسيدة عائشة (رضي الله عنها) : " يَا عَائِشَةُ أَحْسِنِي جِوَارَ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَإِنَّهَا قَلَّ مَا نَفَرَتْ مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ فَكَادَتْ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِمْ".

كما نؤكد أن من أجمل النعم التي تستحق الشكر هي نعمة الأمن التي تستحق أعلى درجات الشكر ، حيث يقول سبحانه : " لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ"(سورة قريش) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا في سربِهِ ، مُعَافًى في جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا " .

كما نؤكد أن من شكر الله شكر من أجرى الله النعمة على يديه أو جعله سببًا فيها ، ففي الحديث النبوي : " لَا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ"، وفي الحديث القدسي: " عبدي لم تشكرني، إذا لم تشكر من أجريت النعمة على يديه"، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا فادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه" ، وكان سيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) يقول : ثَلَاثُ آيَاتٍ نَزَلَتْ مَقْرُونَةً بِثَلَاثِ آيَاتٍ لَا تُقْبَلُ وَاحِدَةٌ مِنْهَا بِغَيْرِ قَرِينَتِهَا ، أَوَّلُهَا : "وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ" ، فمن أقام الصلاة ومنع الزكاة فما

أدى حق الله عليه ، وَالثَّانِي قَوْله تَعَالَى: " أن اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ" ، فمن شكر الله عز وجل ولم يشكر والديه لم يكن شاكرًا حقيقيًّا لله (عز وجل) ، وَالثَّالِثُ قَوْله تَعَالَى: "وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ" ، فَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَلَمْ يُطِعْ الرَّسُولَ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ.

وإذا أردنا أن نتحدث عن شكر الوطن ورد جميله فإن ذلك يتطلب منا أن نعمل على بنائه وأن نجتهد في ذلك ، وأن نشجع المنتج الوطني، وأن ندعمه وأن تعطيه الأولوية بيعًا وشراء وتفضيلاً ، وأن نشجع الاستثمار ، وأن نرشد الاستهلاك ، وأن نقف في وجه المخربين ودعاة الهدم ، وأن نشكر الله (عز وجل) على ما أنعم به علينا من أمن واستقرار ، سائلين الله (عز وجل) أن يديم على مصر أمنها وأمانها وسلامها.

* * *

أشخاص لا يعرفون الهدم
وآخرون لا يعرفون البناء

شتان بين النقيضين البناء والهدم ، وإذا كان ديننا إنما هو دين البناء وعمارة الكون ، فإن كل من يأخذك إلى هذا الطريق ، طريق البناء ، طريق العمل ، طريق الإنتاج ، طريق الإتقان ، طريق الحفاظ على المنشآت العامة والخاصة إنما يأخذك إلى طريق الإسلام ، إلى طريق الوطنية ، إلى طريق الحضارة والرقي ، إلى خير المجتمع وخير الإنسانية، ومن يحاول أن يجرك إلى طريق آخر عكس هذا الاتجاه ، كأن يجرك أو يسلمك إلى طريق الهدم والتخريب وتدمير المنشآت والبنى التحتية أو الاعتداء عليها أو المساس بها إنما يأخذك إلى طريق الهلاك في الدنيا والآخرة ، يقول الحق سبحانه : " فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ * أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا " (محمد : ٢٢-٢٤) ، ويقول سبحانه : "وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ " (البقرة : ٢٠٤-٢٠٦) .

على أن من يعمل بالبناء فلن يكون لديه فائض وقت أو جهد للهدم أو التخريب ، لأنه يدرك طبيعة البناء وما يتطلبه من جهد ومعاناة ، وأن الباني لا يمكن أن يكون هدامًا ، لأنه صاحب نفس ملأى بالخير والعمار

والحضارة والرقي .

أما الهدامون أصحاب النفوس المريضة الذين قصرت بهم هممهم عن أن يجاروا أهل الجد والكفاح والتعب والعرق والعمل والإنتاج ، فلم يجدوا جبرًا لنقيصتهم وسترًا لعورتهم وشفاء لإحساسهم بالنقص سوى حسد الأماجد وانتقاص الأفاضل على حد قول القاضي بن عبد العزيز الجرجاني في مقدمة كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه" وأهل النقص رجلان : رجل أتاه التقصير من قبله ، وقعد به عن الكمال اختياره، فهو يساهم الفضلاء بطبعه ، ويحنو على الفضل بقدر سهمه ، وآخر رأى النقص ممتزجًا بخلقته ، ومؤثّلا في تركيب فطرته ، فاستشعر اليأس من زواله ، وقصرت به الهمة عن انتقاله ، فلجأ إلى حسد الأفاضل ، واستغاث بانتقاص الأماثل ، يرى أن أبلغ الأمور في جبر نقيصته ، وستر ما كشفه العجز عن عورته ، اجتذابُهم إلى مشاركته ، ووسمُهم بمثل سِمَتِه " .

هؤلاء الهدامون خطر داهم على المجتمع ، وعلى أمنه الاجتماعي والاقتصادي ، يقول الشاعر :

لو كل بان خلفه هادم كفى فكيف ببان خلفه ألف هادم

ويقول الآخر :

متى يبلغ البنيان يوما تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

على أن ديننا إنما ينبذ كل ألوان ومعاني الهدم والتخريب ، ويدعو إلى البناء وعمارة الكون ، وكل ما فيه صالح الإنسانية ، يقول سبحانه : "وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ " (الأعراف : ٥٦) ، ويقول سبحانه : " فَاذْكُرُواْ

آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ "(الأعراف :٧٠) ، مما يتطلب منا جميعًا العمل على نشر ثقافة البناء ، والعمل على ترسيخ الإيمان به وأن ما كان للإنسان فلن يخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن الناس جميعًا لو سابقوا إنسانا فلن يأخذوا شيئا كتبه الله له ولن يصلوا إليه ، ولو دفعوه إلى الأمام جميعًا ، فلن يوصلوه إلا إلى شيء كتبه الله له ، يقول سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ إِلَّا قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ " (رواه الترمذي) .

فما أحوجنا إلى تطهير قلوبنا من الحقد والحسد والعمل على تعطيل الآخرين أو تعويق مسيرتهم أو محاولات إفشالهم ، فليس كل ذلك من الإيمان أو كريم الأخلاق ، أو القيم الإنسانية النبيلة ، إنما على العكس من ذلك كله ، فهو حقد يأكل صاحبه على حد قول أبي تمام:

اصبر على مضض الحسود ... فإن صبرك قاتله

فالنار تأكل نفسها ... إن لم تجد ما تأكله

فلنصدق النية والعمل لله عز وجل ، ثم لوطننا ومجتمعنا ، وأبنائنا وأحفادنا وأنفسنا ، ذلك أن الواجب الشرعي والوطني يتطلبان منا جميعًا وحدة الصف وتضافر الجهود لخدمة ديننا ووطننا وقضايانا العادلة ، وألا يعوق أحد منا مسيرة الآخر ، بل يشد بعضنا أزر بعض ، فالعمل العمل ، لأنه صمام الأمان ، وحذارِ حذارِ من الهدم والتخريب ، فهما سبيل الدمار والهلاك في الدنيا والآخرة .

النص المقدس والفكر البشري

لا شك أن هناك اشتباكًا يجب أن يُفك ، والتباسًا ينبغي أن يُزال، في حالتي التجاذب والتنافر أو المد والجزر الماثلتين بين بعض علماء الدين وبعض المثقفين ، وإن كنت لا أرى لهذا التقابل وجهًا ، إذ ينبغي أن يكون العالم مثقفاً ، وأن يكون المثقف على قدر من الاتصال ومن الإلمام بالثقافة الدينية ولو في أساسياتها وقضاياها الكبرى ، ويمكن إزالة كثير من وجوه الالتباس إذا فرَّقنا جميعًا وبوضوح بين النص المقدس الثابت غير القابل للمساس به أو الافتراء عليه أو النيل منه ، وهو النص القرآني ، والنص النبوي الثابت عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وبين التراث الفكري البشري الناشئ حول هذين النصين القرآني والنبوي، المبني عليهما فهمًا أو تفسيرًا أو استنتاجًا أو تأويلًا ، مما يقبل الاجتهاد بضوابطه نظرًا لتغيُر الزمان والمكان والحال ، فما أفتى به بعض العلماء في عصر ما وكان مناسباً لزمانه ومكانه وبيئته قد لا يكون مناسباً لزماننا وواقعنا ، فإن الأمر قد يتغير بتغير الزمان أو المكان أو الحال أو حتى حال المستفتي ، وقد ذكر الأصوليون أن الفتوى تتوارد عليها الجهات الأربع : الأزمنة والأمكنة والأحوال والأشخاص.

على أن هذا التراث الفكري الإنساني لا يمكن طرحه جملة ولا تطبيقه على واقعنا جملة ، إذ لا يمكن أن نطرح نتاج ما يزيد على أربعة عشر قرنًا من الزمان ، وننشئ حياة فكرية في الهواء الطلق ، بل إن واقع وإشكالية كثير من الجماعات المتطرفة أنها تسعى إلى طرح

هذا التراث جملَةً وإنشاء واقع فكرى جديد يتسق مع مغامراتهم الإرهابية وأفكارهم المتطرفة ، بدعوى أنهم رجال كما كان الآخرون رجالًا ، متناسين أو متجاهلين كل ما أصّلَه أهل العلم المعتبرون المتخصصون من ضوابط الاجتهاد والفتوى وأصول العلم الشرعي .

على أن العلماء المستنيرين يؤكدون على ضرورة توفر ثلاثة ضوابط رئيسة لمن يتصدى للإفتاء.

أولها :- معرفة الحكم الشرعي من مصادره المعتبرة معرفة العالم المتقن المتخصص المجتهد.

ثانيها : - معرفة الواقع ، بحيث لا يكون العالم أو المفتي بمعزل عن معطيات عصره وضروراته وحاجاته مما لا غنى عنه لا للمفتي ولا للمستفتي .

ثالثها :- وهو الأهم أن يكون لديه رؤية وبصر ونظر بحيث يُنْزِل الحكم الشرعي المناسب على ما يناسبه من الواقع الذي يكون قد ألَّم بجميع أطرافه ، فلا يُسْقِط الحكم على غير واقعه ، ولا يحكم على واقع لا يُلمُّ به ولا بملابساته العصرية .

فمثلاً أهل العلم جميعًا وبلا استثناء يُجمعون على حرمة الربا ؛ لقوله تعالى: " وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا " (البقرة: ٢٧٥) ، لكن الأحكام التفصيلية المتعلقة بالربا، وإنزاله على أي لون من ألوان المعاملات العصرية تقتضى من المفتي أن يكون ملمًّا بأحكام جميع المعاملات في الفقه الإسلامي من مصادرها الشرعية الأصيلة، ما يدخل منها في باب الربا وما لا يدخل ، مُدركاً كل الإدراك للفروق

الدقيقة بينها ، من بيع ، أو ربا ، أو قرض ، أو سلم ، أو مخابرة ، أو مزارعة ، أو مساقاة ، أو مرابحة ، ملمًّا في الوقت ذاته بأنواع المعاملات العصرية وتفريعاتها وآليات عملها وضرورات العصر ، وما لا يستغنى عنه في حياة الناس ومعاملاتهم منها ، مفرقًا بين ما هو عام يعود بالنفع العام على جميع أفراد المجتمع ، وبين ما هو خاص مما يُسهم في صنع الطبقية ويزيد الغني غنى والفقير فقرًا ، ثم بعد ذلك كله يكون لديه من العلم والخبرة ، والبصر والبصيرة ، والدربة والتمرس ، ما يسقط به الحكم الشرعي على ما يناسبه من الواقع، أو يكيف الواقع في ضوء ما *يقابله* وينطبق عليه من الأحكام الشرعية لا ما ينطبق على غيره أو سواه ، ومن هنا كان عمل الأصوليين والفقهاء الدقيق غاية الدقة في تحديد شروط المجتهد وأحكام القياس والاستنباط وسائر الأدلة والقواعد الكلية سواء المتفق عليها أم المختلف فيها ، والتي يبنى عليها المجتهد اجتهاده ، مما يؤكد أن الأمر في حاجة إلى التخصص الدقيق ، وأن الفتوى لا يمكن أن تكون كلأً مباحًا للهواة من يعلم ومن لا يعلم.

ولو أن كل إنسان تفرغ لما يتقنه وما يحسنه لكان التفاهم بيننا أشد ، ومساحات التلاقي بيننا أوسع، وقد قالوا: من انشغل بما لا يعنيه ضيع ما يجب أن يشغله ويعنيه.

* * *

بين الصلاح والإصلاح

لا شك أن الإسلام إنما هو دين الصلاح والإصلاح معًا ، بأن يكون الإنسان صالحًا في ذاته وخاصة نفسه ، فيما بينه وبين الله ، وما بينه وبين نفسه ، وما بينه وبين الناس ، مصلحًا للآخرين أو ساعيًا إلى إصلاحهم على أقل تقدير.

وقد ربط القرآن الكريم بين الإيمان والإصلاح فقال سبحانه وتعالى : " فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ " ، وقال سبحانه : "فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً"، وقال سبحانه : " وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا " ، وقال سبحانه : " مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ " (النحل :٩٧)، كما ربط بين التقوى والإصلاح فقال سبحانه : "فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ" (الأعراف :٣٥)، وربط بين التوبة الصادقة والصلاح والإصلاح ، فقال سبحانه : "فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا" (النساء :١٦)، وقال سبحانه : "إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ " (النور :٥)، وقال سبحانه : " إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً " (الفرقان :٧٠).

والأديان كلها قائمة على فكرة الصلاح والإصلاح ، فقد قال الفقهاء : حيثما تكون المصلحة فثمة شرع الله ، لأن شرع الله (عز وجل) قائم

على مراعاة مصالح البلاد والعباد ، وقد ذكر القرآن الكريم عشر وصايا في أواخر سورة الأنعام قال عنها سيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما): هن من الآيات المحكمات التي لم تختلف في أمة من الأمم أو شريعة من الشرائع ، لما فيها من صلاح الفرد والمجتمع ، وذلك حيث يقول الحق سبحانه :" قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " ، فمن خرج عن مقتضيات هذه الوصايا خرج على مقتضيات الشرائع كلها ، ذلك أن جميع الشرائع السماوية قائمة على الحق والعدل وإنصاف الآخر ، والصلاح والإصلاح ، والاستقامة على الجادة .

فإذا انتقلنا من العام إلى الخاص ، فهذا نبي الله موسى (عليه السلام) يقول لأخيه هارون (عليه السلام) : "اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ" ، وهذا شعيب (عليه السلام) يقول لقومه : " أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ"، ويؤكد ذلك بقوله : " إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ

تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ "، وهذا سيدنا صالح (عليه السلام) يخاطب قومه فيقول: " هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ " ويقول لهم : " فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ " .

وقد نهى الإسلام عن الفساد والإفساد حتى في مال العدو وحتى في حرب الكفار ، فنهى المسلمين أن يقطعوا شجرًا ، أو يحرقوا زرعاً أو ثمرًا ، أو يخربوا عامرًا ، لأن ذلك كله إفساد " وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ " ، ويقول سبحانه : " إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ " (القصص :٧٧).

ويقول سبحانه : " وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ "(الأعراف :٨٥) ، فخير الناس أنفعهم للناس ، وإن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر ، ومنهم مفاتيح للشر مغاليق للخير ، فطوبى لمن جعله الله مفتاحًا للخير مغلاقًا للشر ، ويا شؤم ، ويا بؤس ، ويا لسوء عاقبة من كان مفتاحاً للشر بابًا للفساد والإفساد ، محراث شر كما كانت العرب تقول في جاهليتها .

وإني لأعجب لهؤلاء الأدعياء العملاء الخونة لدينهم وأوطانهم ، الذين يؤصلون للفساد والإفساد ، ويبنون فلسفاتهم الفكرية على الهدم والتخريب والتدمير ، على نحو ما نلمس في كثير من كتابات متطرفي جماعة الإخوان الإرهابية ، حيث دعا مُنَظرُها سيد قطب في بعض مذكراته إلى وجوب قيام فئة مؤمنة وفق تصوره الذي استقت منه الجماعة فكرها بردّ المجتمعات من الجاهلية المزعومة في نظره إلى الإسلام من جديد، مؤكدًا أن هذه الفئة لابد أن تصطدم مع المجتمع ،

وعليها أن تُعد نفسها لهذا الصدام ببناء قوة ذاتية لها قادرة على ردع المجتمع ، ومما دعا إليه بعضُ ما نشهده الآن ، حيث دعا إلى إنهاك الدولة بتدمير بناها التحتية ، فدعا صراحة إلى تدمير أبراج الكهرباء ، وهدم الجسور وتدميرها ، بل دعا إلى ما هو أبعد من ذلك إلى أن هناك رؤسًا يجب أن تقطع فى سبيل تمرير مشروعهم، وذكر أناساً بأشخاصهم وأعيانهم آنذاك ، وهو عين ما تنتهجه داعش وحليفتها الإرهابية جماعة الإخوان في أيامنا هذه ، مما يستوجب كشف زيف نظرياتهم التي بنوا عليها جماعتهم ، دون نظر إلى المصالح العليا للأوطان التي لا تمثل في نظرهم سوى كومة من تراب لا قيمة لها ، ضاربين بمفهوم الدولة الوطنية عرض الحائط على نحو ما صرح به أحد مرشديهم من ألفاظ في حق الوطن يعف اللسان عن ذكرها أو تكرارها.

* * *

مفهوم الأمن القومي

لا شك أن استقرار أي دولة إنما يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالحفاظ على أمنها القومي ، بل بمدى حرص كل فرد من أفرادها على مستوى هذا الأمن ، وعدم المساس به ، ولاسيما من كان في موضع اتخاذ القرار ، وعلى وجه أخص القرارات التي تتصل بالتعامل مع العالم الخارجي ، أو تؤثر في هذا التعامل.

وإذا كان الأمن القومي لأي دولة مستقلة ذات سيادة خطًّا أحمر لا يمكن تجاوزه أو التسامح تجاهه فإن الحفاظ على عدم المساس بهذا الخط أو السماح بتجاوزه يقتضي وعيًا وثقافة وتثقيفًا مستمرا وعلميًّا ومنهجيًا بمفهوم الأمن القومي ، وأستطيع أن أقول : إن عقد دورات مكثفة في ذلك لكل من يتولى موقعًا أو منصبًا قياديًّا بات أمرًا ضروريًّا شديد الإلحاح ، إذ لا تكفي المهارات الفنية أو التقنية أو الإدارية في تكوين رؤية شاملة تؤدي إلى الاتجاه والمسار الصحيح ، ما لم تكن هناك رؤية أبعد ونظرة أشمل لأثر أي قرار يتخذ على الأمن القومي العام.

وقد لا يخطر ببال بعض الناس أن ما يتخذه من قرارات أو ما يقوم به من تصرفات أو ما يقيمه من علاقات يمكن أن يكون ذا أثر في الأمن القومي ، وقد لا يكون ذلك عن سوء قصد ، وإنما لعدم الإلمام بمعطيات الأمن القومي ، أو لأن هذه المعطيات غير حاضرة في شعوره بالقدر الكافي ، على أن المرحلة والظروف التي تمر بها البلاد والمنطقة والعالم تحتاج من المواطن العادي فضلاً عن المسئول أو متخذ القرار أن يكون على أعلى درجـة من الـوعي بالأمن القـومي لبـلاده ، سواء في اتخاذ

القرارات ، أم في إقامة العلاقات ، أم في عقد الاتفاقيات والبروتوكولات.

وإذا كان مستوى الوعي بأهمية وخطورة كل ما يتصل بالأمن القومي متفاوتًا بين شخص وآخر لاعتبارات كثيرة من أهمها : الثقافة ، والحرص على المصلحة الوطنية ، وحمل هم الوطن ، وجعل المصلحة العليا للوطن فوق كل اعتبار ، فإن الأمر يتقضي:

أ- المزيد من التثقيف والتوعية بمفهوم الأمن القومي، من خلال الدورات التدريبية المكثفة لكل من يتولى عملاً قياديًا.

ب- التوعية بمفهوم الأمن القومي وضرورة الحفاظ عليه من السياسيين والمفكرين والكتاب والمثقفين ووسائل الإعلام ، وبخاصة من يمتلكون الرؤية الثاقبة والوعي الناضج بمفهوم هذا الأمن ، واعتبار ذلك أحد أهم عوامل استقرار البلاد.

ج- ضرورة التنسيق المسبق مع الجهات المختصة بذلك قبل عقد أي اتفاقيات أو بروتوكولات مع أي جهة خارجية ، تحسبًا لأي اختراق أو تأثير على مصالحنا القومية ، حتى لو كان ذلك عن غير قصد.

مع التأكيد على أن مفهوم الأمن القومي لأي بلد يقتضي الإلمام بالأحوال السياسية الداخلية والخارجية ، الإقليمية والدولية ، فعمقنا العربي ، وعمقنا الأفريقي ، وعالمنا الإسلامي ، وعلاقتنا الدولية ، كل ذلك يجب وضعه في الاعتبار عند اتخاذ القرارات الهامة والحيوية ، ودراسة مدى تأثيرها على هذه العلاقات ، ومردودها الإيجابي أو السلبي على كل منها ، مع دراسة الأولويات ، ومعرفة مواطن الثقل وهوامش الحركة في كل اتجاه.

ولا شك أن العلاقات السياسية ، والعسكرية ، والاقتصادية ، والثقافية، والفنية ، والإعلامية إنما يرتد أثر بعضها على الآخر ، إذ لم يعد ممكنا فصل أي منها عن الآخر فصلا باتًا ، بحيث تتحرك كل مؤسسة وكأنها عالم خاص ، إنما ينبغي أن يكون تصرف كل مؤسسة ناظرًا بعين اعتبار قوية على أثر تصرفه على المؤسسات الوطنية الأخرى ، ولا شك أن هذا الأمر يقتضي حسًّا وطنيا عاليًا ، ودربة وخبرة كبيرة ، وأن نعمل جميعًا بروح الفريق ، وأن ننطلق من قاعدة : " عموم الفهم وخصوصية التكاليف" ، بأن يكون كل مسئول على مستوى مسئوليته الكاملة بالمهام المسندة إليه واختصاصه بها وعلى مستوى عال من الفهم والوعي بعمل الفريق الذي يعمل معه ، ومقتضيات اتخاذ القرار في المؤسسة التي ينتمي إليها.

مع التأكيد على أن الدول لا تستقر بمجرد النوايا الحسنة دون الوعي والتخطيط واليقظة ، في عالم من لم يتذأب فيه أكلته الذئاب ، وقد كان سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقول : " لست بالخب ولكن الخب لا يخدعني "، وكان المغيرة بن شعبة يقول : " لولا الإسلام لمكرت مكرًا لا تطيقه جزيرة العرب" ، فلا بد مع النية الحسنة من صحة العمل وإتقانه ، يقول الحق سبحانه : " قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا"، ولذا أكد القرآن الكريم على شرطي الأمانة والكفاءة ، إذ لا تكفي إحداهما عن الآخرى ، وذلك حيث يقول سبحانه على لسان ابنة شعيب (عليهما السلام): " يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ"،

وحيث يقول (عز وجل) على لسان يوسف (عليه السلام) : " **اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**".

* * *

الوعـــي بالوطـــن

لا شك أن قضية الوعي بالوطن أحد أهم المرتكزات لصياغة الشخصية السوية ، وأحد أهم ضمانات الولاء والانتماء للوطن والحفاظ على مقدراته وكل ذرة من ثراه الندي ، وفرق بين العلم والوعي ، فكلاهما مطلوب ، لكن العلم شيء والوعي شيء آخر ، فكم من محسوب على العلماء أو الأكاديميين غير مثقفٍ ولا واعٍ بمفهوم الوطن وقضاياه وما يحيط به أو يحاك له انساق أو انجرَّ خلف أفكار جماعات متطرفة يدين لها بالولاء الأعمى حتى لمن هو دونه علمًا وثقافةً بمراحل ودرجات.

وقد شد انتباهي كثيرًا ما ذكره سيادة الرئيس/ عبد الفتاح السيسي من أن المؤامرة الكبرى قد تتمثل في عدم وعينا أو غياب هذا الوعي ، وما ذكره من أن صياغة الوعي الصحيح وإعادة صياغة الشخصية المصرية يحتاجان إلى تضافر سائر مؤسسات الدولة المعنية ببناء الإنسان المصري، فنحن في حاجة إلى جهود المؤسسات الدينية والثقافية والإعلامية والتعليمية والتربوية لصياغة رؤية عصرية شاملة ومتكاملة ، وبخاصة في مجال القيم والهوية والانتماء الوطني.

الوطن ليس مجرد أرض نعيش عليها ، وليس حفنة تراب كما ذكر مرشد الجماعة الإرهابية ، الوطن معنى أبعد وأعمق من ذلك بكثير ، الوطن حياة ، الوطن كيان ، الوطن هوية ، الوطن انتماء ، الوطن أمانة، ولله در شوقي حيث يقول:

وَلِلأَوطـانِ فــي دَمِ كُـلِّ حُرٍّ   يَدٌ سَلَفَت وَدَيــنٌ مُستَحـــقُّ

وقد قالوا : رجل فقير في دولة غنية قوية خير من رجل غني في دولة فقيرة أو ضعيفة ، لأن الدولة القوية تحمي أبناءها وتحمي أموالهم وتوفر لهم الأمن والأمان ، أما الدولة الضعيفة فلا أمن فيها لأحد .

إن الوعي بالوطن يقتضي العمل على بنائه ورفعة شأنه في جميع المجالات : الاقتصادية ، والفكرية ، والثقافية والاجتماعية ، والإنسانية ، وبشتى السبل: بالعمل والإنتاج ، بالجد والاجتهاد ، بالدقة والإتقان ، بالتكافل والتراحم ، بالإخلاص للوطن ، والإخلاص في العمل ، بالعلم والفكر ، بالثقافة والإبداع ، بنشر القيم الإيجابية ، من الصدق ، والأمانة ، والوفاء ، والرحمة ، والتسامح ، والتيسير ، والمروءة، والنظافة ، والنظام ، واحترام الكبير ، وإكرام الصغير ، وإنصاف المظلوم ، وإكساب المعدوم ، وإغاثة الملهوف ، ونصرة المظلوم ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، وإماطة الأذى عن الطريق ، والحرص على المنشآت العامة والمال العام ، والترفع عن الدنايا ، والبعد عن سائر القيم السلبية التي هي على عكس ذلك من الكذب ، والخيانة ، والغدر ، والأذى ، والبطالة ، والكسل ، والفساد ، والإفساد، والتخريب.

الوعي بالوطن يقتضي الإحاطة والإلمام بما يحاك له من مؤامرات تستهدف إنهاك الدولة ، وبخطورة الإرهابيين والعملاء والخونة ، والعمل على تخليص الوطن من شرورهم وآثامهم .

الوعي بالوطن يقتضي الوعي الكامل بمفهوم الوحدة الوطنية ، ويفوت الفرصة على من يعملون على اللعب في نسيج هذا الوطن ، ولذا

أعلنا وبلا أي تردد أن الاعتداء على الكنائس كالاعتداء على المساجد وأن أمن مصر لا يتجزأ ولا يقبل التفرقة أو التجزئة أو التصنيف ، فما يصيب أي مصري إنما يصيب المصريين جميعًا ، كما أكدنا أن من يفجر نفسه في البشر أو حتى في الحجر إنما هو مجرم منتحر يعجل بنفسه إلى نار جهنم ، وحتى من يقتل نفسه انتحارًا إنما يعجل بها إلى سواء الجحيم ، حيث يقول الحق سبحانه: " وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا" ، ويقول سبحانه في شأن عباد الرحمن :" وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" ، ويقول سبحانه : "وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا" ، ويقول سبحانه : " أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا".

* * *

وقفــــة مع النــفس

هل يستطيع كل واحد منا أن يقف مع نفسه للحظات، ليسأل نفسه ماذا قدم لوطنه ؟ وماذا قدم للقاء ربه؟ وما آخر الطريق الذي يريد الوصول إليه ؟ وماذا عن راحة ضميره في كل ما قدم ويقدم ؟ لقد سأل رجل النبي (صلى الله عليه وسلم) متى الساعة ؟ فقال له (صلى الله عليه وسلم) : "ماذا أعددت لها ؟ " فقال الرجل: حب الله ورسوله ، فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم) : " أنت مع من أحببت" ، وهل سيقول الإنسان – وعن قناعة تامة– لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لسلكت – وعن راحة ضمير– الطريق نفسه ، أو أنه يتمنى أن لو كان قد سلك طريقًا آخر ، وإذا كان العقلاء يؤكدون أن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل ، فيمكن لكل عاقل أن يثوب إلى طريق الرشاد بلا تردد أو توجس ما دام يوقن أنه سبيل الرشاد ، فاليوم سبيل العمل ، وغدًا يوم الحساب حيث يقال: " وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ " (الصافات :٢٤)، فالخلق جميعًا بين فريقين لا ثالث لهما " فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ " (الأعراف :٣٠) ، فريق في الجنة وآخر في السعير ، " فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ " (هود : ١٠٦–١٠٨) .

يذكرنا القرآن الكريم بحال كلا الفريقين ، فيقول الحق سبحانه :"إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا

تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ" (فصلت ٣٠-٣٢) .

فالملائكة هنا لا تتنزل على الأنبياء والمرسلين فحسب ، إنما تتنزل على عباد الله الصالحين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، لكن متى تتنزل ؟ وكيف تتنزل ؟ أما الكيفية فعلمها مفوض إلى رب السموات والأرض رب العرش العظيم ، ولكن متى تتنزل ؟ فأكثر أهل العلم على أنها تنزل على المؤمن ساعة الاحتضار لتطمئنه قائلة : لا تخف يا عبد الله ولا تحزن وأبشر بالجنة التي كنت توعد ،" نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ " (فصلت :٣١) ، أما يوم المحشر فكما تحدث القرآن الكريم في أواخر سورة الأنبياء " وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ " (الأنبياء :١٠٣) ، وأما في الجنة فالملائكة يدخلون عليهم من كل باب "سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ " (الرعد :٢٤) ، " كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ "(الحاقة :٢٤) ، " وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ " (فصلت :٣١)" كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " (البقرة :٢٥)" وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنْثُوراً * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً " (الإنسان :١٩-٢٠) أعد الله (عز وجل) لهم فيها "مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر "، ونزع الله عز وجل من بينهم الغل

والحسد " وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ" (الحجر :٤٧) .

أما على الجانب الآخر والعياذ بالله فهناك من شُغل عن الله (عز وجل) بماله ، أو بجاهه ، أو بسلطانه ، أو بتجارته ، أو بجماعته ، وفصيله ، وهناك " يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ " (عبس : ٣٤-٣٧) ، " يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ" (الشعراء ٨٨ – ٨٩) ، " يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ " (لقمان : ٣٣) يومها يندم الخاسرون حيث لا ينفع الندم ، يقول كل من يأخذ كتابه بشماله " يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ "(الحاقة : ٢٥-٣٢) ، وسيقال له عند انصراف آخر قدم مودع : يابن آدم جاءوا ودفنوك، وفي التراب وضعوك ، وعادوا وتركوك ، ولو ظلوا معك ما نفعوك ، ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت .

فنحن بين سبيلين بينهما الحق سبحانه وتعالى في مواضع عديدة من كتابه تعالى ، منها قوله تعالى : " مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً " (الإسراء ١٨-١٩)، فالآخرة تحتاج إلى سعي هو سعيها الموصول إلى

مرضاة الله فيها ، سعي المؤمن بها المعدُّ لها ، وهذا هو السعي المشكور ، أما الفريق الآخر فحتفه جهنم يلقاها مذمومًا مدحورًا ، ويقول سبحانه : " فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى " (الليل: ٥-١٠) ، فالعاقل من يعمل لدنياه كأنما يعيش أبدًا ويعمل لآخرته كأنه يموت غدًا، من منطلق قوله تعالى :" وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ" (القصص :٧٧).



فهرس الموضوعات